رواية

صمت الكهنة

تأليف

صبحي موسى

سما للنشر والتوزيع

صمت الكهنة

صبحي موسى

العنوان: صمت الكهنة

المؤلف: صبحي موسى

إشراف عام: نجلاء قاسم

الناشر

سما للنشر والتوزيع

15 ش يوسف الجندي ميدان باب اللوق
أمام مول البستان وسط البلد
تليفون: 24517300 - 01271919100
emil: samanasher@yahoo.com

التوزيـــع

المجموعة الدولية للنشر والتوزيع

80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة
تليفون: 24518068 - 01099998240
emil: aldawleah_group1@yahoo.com

تصميم الغلاف: إيمان صـلاح
إخـراج داخـلـي: معتز حسنين

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونيةأو ميكانـيكـيـة أو بالتـصـويـر أو خـلاف ذلـك إلا بـإذن كتابـي من الناشـر فقط.

الترقـيـم الـدولـي: **978-977-6451-72-8**
رقـم الإيـداع: **2014 / 9835**
الطبـعـة الأولـى: مـايـو **2014**

صمت الكهنة

المحتويات

إهـداء
إذا كان لا بد للحكايا من تواريخ
لست أعرف ما يمكن أن يقوله
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21

22
23
24
25
26
27

إهــداء

إليهم....

هؤلاء الذين

تحمَّلوا

ضريبة صمتهم

كل هذه الأعوام.

صبـحـي موسـى

إذا كان لا بد للحكايا من تواريخ
وأماكن فعلينا أن نصنع لها تواريخها
وأماكنها الخاصة

لست أعرف ما يمكن أن يقوله الناس عنِّي؛
لكن الحقيقة هي الشيء الوحيد
الذي يدفعني لخيانة الصمت..
فسامحني يا إلهي العظيم؛
لأن السر أعظم مما تحتمل أضلعي،
ووحدك تعرف أنني لا أبغي معصيتك،
ولا أود قتل نفسي بين الحيات والثعابين.
لكنها مدينتك، وما سيؤول إليه ذكرك العظيم.

1

القلم يرتعش في يدي وأشعر أنني لم أقبض عليه منذ زمن بعيد، هذا صحيح، فليست لي علاقة به، لكن الفرق بينه وبين الريشة ليس كبيرًا إلى هذا الحد، فكلاهما يستطيع بين جدران غرفة مغلقة أن يعيد تشكيل العالم.. الفرق الوحيد أن المداد مختلف.

ذات يوم- إن كان للأيام ذات- كنت أشعر أن الريشة أحد أصابعي، لم تكن بعيدة عني، ولم أكن أمسك بها، فكلانا ذات واحدة، يا للسخرية! أنا الآن لا أستطيع أن أكتب حرفًا واحدًا، ما أكتبه لا فرق بينه وبين خط عجوز يتعلم الكتابة، كم تكون الخطوط عصيَّة علينا ما دمنا فارقناها زمنًا طويلًا، وكم نكون قساة على أنفسنا حين نجبرها على فعل ما لم تتعلم!! لكنني سأحاول حتى أنسى هذا الألم، وربما أنسى مديحه والكاهن، ونفسي، فالمرء يستطيع أن ينسى آلامه ما دام بإمكانه أن ينسى. لكن عما أستطيع أن أكتب؟! هل أكتب عن أشمون؟ عن أبي؟ عن أمي التي ماتت في الأربعين من عمرها؟! أم أكتب عن الكهنة الذين اعتادوا زيارتي؟ ليس مفيدًا أن يكتب المرء عن أناس أحبهم طالما لن تـُأتي الكتابة بغير السخرية منهم. عما أكتب إذًا؟! عما أكتب؟!

آه، سأكتب عن الطبيب الذي يبتسم دائمًا في وجهي. حين يكون طبيبك مثل هذا الطبيب الذي يعالجني، فلا بد أنك محظوظ بالفعل؛ لأنه يتجمل بثلاث خصال، لا توجد في معبد عظيم كمعبد أشمون القديم. أولها أنه ساذج تمامًا ويفعل كل ما يريده مريض أجمع الكل على أنه مجنون، وربما ميت، يلي ذلك أنه يأتي بالورق كل صباح ويضعه على المنضدة التي أحضرها منذ شرعت في الكتابة ثم يخرج، آخرها أنه حين يقرأ، يقرأ بنهم شديد كل ما أكتب، رغم صغر الخط وكمِّ الأشياء التي أمحوها ثم أعيد كتابتها، ثم لا يسألني عن شيء كأنني لست موجودًا، وكأنه لم يقرأ.

لا أعلم لماذا أتحدث عنه بهذا الشكل رغم أنني أدين له بالجميل في أكثر من شيء، فقد أراحني من صواعق الكهرباء التي كانت مقررة عليَّ كل يوم، من الموت بأجهزة الطب. كما أنه حين عرضت عليه فكرة أن أسرِّي عن نفسي بالكتابة ابتسم كعادته في هدوء وقال: «هذا عمل منهك، ويصعب على مريض في مثل حالتك أن يأتي به، لكن لتحاول فربما تستطيع أن تسليِّ نفسك في هذه الوحدة».

لا أحد يدرك معنى الوحدة هنا مثلي، فلا أحد يرغب في رؤية أناس العصور القديمة.. شعر هائش ولحية لم تحلق منذ أزمنة، ولا يملك سوى نوبات الصرع التي يأخذ على أثرها حقن المخدر وصواعق الكهرباء.

ليس هنا ما يمكن أن يفعله شخص مثلي، غير مطالعة بياض الغرفة وتأمل البله الذي يملأ عيون الوافدين عليه. فكل ما هنا يقتل الرحمة وينزع من الناس إنسانيتهم. ليتهم يمنحونني الموت، فكم أراه منحة يستحقها أمثالي، وكم أحسد الخيل التي يُطلق أصحابها عليها الرصاص؛ لأنها على الأقل تستريح من الألم، ويا ليتني كنت واحدًا من هؤلاء العماليق الذين يغرسون خناجرهم في صدورهم، أو يطيرون أنفسهم من الأدوار الشاهقة، كي ينزلوا بسلام إلى هذا البهيِّ الذي يسمونه الموت.

لا شيء إذَا يمكنه أن يرصد عددَ التفاعلات التي تغلي في رأسه كل لحظة، هذه التفاعلات التي سوف تنفجر بها ذات مساء جميل. أعرف أن هذا اليوم يقترب، وكم أنتظره مثلما أنتظر نهاية الغليان الذي يشبه الخطايا التي لا بد من الاعتراف بها.

2

بالقطع ليس مسموحًا لأي من الكهنة- مهما بلغت درجته الكهنوتية- أن يبوح بأسراره، ولو في هيئة مذكرات ستدفن مع جثمانه الطيب، لكن الحقيقة المؤلمة قد تستدعي أن يحبس كاهن نفسه، كي يكتب عن مستقبل مدينة الرب التي يقصدها مئات المريدين كل يوم، وليست الحقيقة وحدها، لكنه الثقل الزائد على القلب، فمنذ خمسة عشر عامًا- حين أودعني والدي باب المعبد الذي أغلق خلفي- وتجمعات النساجين والنحاتين وملامح البيوت والشوارع لا تزال محفورة في ذهني.

قد أكون نسيتها قليلًا بعدما ملأتني هالة القداسة المحيطة بالكاهن «رح عوم» حين قال: «عليك أن تنسى الخارج تمامًا، وأن تذوب في روح الحقيقة، روح المعرفة للإله «أشمون»، عليك أن تغلق فمك وتفسح قدر ما تستطيع من قلبك لنور أسراره المقدسة، أسرار «أشمون» لا تخرج أبعد من جدران صدرك، ولا يتردد صداها خارج هذا القفص الصغير».

كانت يده تضرب- بعنف مخالب صقر عجوز- على جدران صدري. لم أكن أعرف ساعتها معنى الحقيقة، ولا أن الباب الذي أغلق خلفي لن يفتح حتى بالموت، لكنني أدركت أن هذه الردهات المليئة بالصمت والظلمة سوف تتكشف نورًا حين أنسى النور الذي يملأ بيوت «أشمون» وحقولها، وأنني سأصبح حجرًا في معبد الإله العظيم وسرًّا من أسراره الكثيرة.

«كهنة آمون ورع يريدون الحقيقة، فعليك أن تغلفها بآلاف الرموز والطلاسم حتى لا يصعد أعداؤك على كتفيك».

هذا ما وعت عيناي على جدران المذبح حين دخلته أول مرة، فقد أوقفني الكاهن المقدس وقال: ما اسمك يا غلام؟ كان المعلمون بالأمس قد لقنوني اسمًا غير الذي أعرف منذ طفولتي فقلت «سنفر أشمون» لحظتها رأيت الدم يتدفق على ساعديه وآلاف الحيات تخرج من قدميه، بينما مطرقة تنزل من السماء كي تخسف برأسي.

رأيت عينه المليئة بالخواء كحارس للقبور والصمت تقول «أشمون لا يعرف الحمقى فلا تُعطِ أعداءك سلاح موتك». ما زلت أذكر صوته الآن، وكأنه يأتي من الجحيم، وكأن العقارب ما زالت تتقافز من فمه، وكأنني ما زلت ذلك الطفل الذي لا يزال يطالع التعاليم على جدران المذبح.

3

لا أدري لماذا تلح على الذهن دائمًا مواقف بعينها رغم أننا نحاول الهرب منها وإزاحتها من أمام أعيننا بنفس القوة، مواقف كثيرة قد لا نعيها في حينها لكنها بعد مرور الوقت تفاجئنا بالأسئلة التي تفتح السماء على الجحيم. في اللقاء الأول بين «مديحة» وبيني لم أكن واعيًا بما يسمح لي بإدراك الحقيقة، لكنني شعرت بأنها ليست فتاة ولا عذرية لها، لم أشعر بالدم الذي ينساب من الدلتا فيغرق الأرض وما حولها، لم أرَ أثرًا لدم المذبح المقدس على ملاءتنا، فقط بعض الكرمشات والنطف، بعض السباب الذي يرطب العنف المشترك، هذا ما انتهى إليه لقاؤنا، لكن هروبها واختفاءها مني جعلني أقص اللقطات وأعيد ترتيبها، كل شيء موجع بيننا، حديثها عن غشاء البكارة الذي لا ينثقب، عن الأصدقاء الذين سهرت معهم، عن الدين والجنس والحياة، آلاف الكلمات والإيماءات التي تؤهل المرء لعمل المفاجأة، لكنني لم أفاجأ، لأنني على الأقل لم أكن موجودًا آنئذٍ.

لم أكن أنا أنا، ولم تكن هي هي، ولا الوقت هو الوقت، قاس جدًّا أن تحاك الخديعة كأبدع ما تكون على المخاتلة، وأن تذهب الفريسة إلى حتفها- كأجمل ما تكون عليه البراءة من تجسد- حتى إنها تؤنِّب نفسها لأنها لوثت الفخ لصاحبه.

ولا أدري لماذا حين اكتمل الجزء الأول من حيلتها، وذهبت أطلب من والدي خطبتها رفض تمامًا؟ هل كان يعلم عنا شيئًا؟ أم هو خوفه القديم الدائم من المجهول والغرباء الذين لا يعرفهم؟ أم لأنه تعوَّد أن يفعل ذلك بحكمة الكهنة الكبار، فأدرك الحقيقة ورفض أن يفصح عنها؟ ربما مرت الأيام وأصبحت في سنِّه، وجاء ابني ليطلب ذلك مني، بالقطع سأرفض، لكنني لن أستطيع الإفصاح عن سبب رفضي، رغم أنني سأكون ساعتها ممتلكًا للحقيقة الكاملة مثلما امتلكها أبي، ولم يفصح، ومثلما لم يستطع «حور محب» الإفصاح عما يعرف لـ «أخنحور».

نصحه ألا يخرج لتراتيل السماء هذه الليلة، حاول أن يقنعه بالبرد والظلمة، وربما كبر السن، لكن الكاهن العجوز ابتسم في وهن وقال: «أنت تعلم الحقيقة يا حور، تعلم شيئًا ما عن موتي، منذ متى والريح أو البرد والظلمة يحجبان كاهنًا مثلي عن أداء واجبه الكهنوتي، هل تخاف من شيء يا حور؟! لا أظنك هذا الرجل، فما هو آتٍ آت، وأشمون لن يوقف الحياة من أجل عجوز مثلي».

تركه يحتسي أوراق النعناع المغلي، وأخذ عصاه ليدب على أكتاف الريح التي تصفر بالخارج، ولكنه لم يعبر بضع خطوات حتى أضاء دمه مجسم العتمة القائم أمام المنزل، دم قانٍ من كثرة الصيام والتراتيل، من كثرة الصمت، دم ينبثق على سيقان ثلاثة سهام مغروزة في الصدر النحيل.

ما كان لحور أن يتحدث بما يعرف، وما كان لكاهن التعاليم أن يهرب من حتفه. «هي النهاية، النهاية يا حور، هل هذا ما أردت منعه، ما كنت تستطيع، فجميعنا يسعى إلى نهايته، وجميعنا يخطو خطوة في ظلمة دائمة».

بهذه الكلمات أنهى كاهن التعاليم المقدسة الحياة، قبلما يبدأ في حديث الصمت، وتنطلق روحه إلى

«أوزيريس»، حيث يعبر في مركبه الذي لا عودة منه إلا حين ينتهي كل شيء. ويعود أشمون وحيدًا مثلما كان في البدء، لا شيء فوقه، ولا شيء تحته، ولا شيء يحمل عرشه سوى المحيط الأزلي.

4

أيها الكاهن المقدس «براغ» لتسمح عدالتكم بقبول ابني «هات حب» تلميذًا في معبد الإله العظيم.

لا يمكن للمرضى النفسيين أن يقيموا عملًا متكاملًا، حتى لو كان كتابة هلاوسهم على هيئة مذكرات أو سيرة ذاتية، هكذا تحدث الأطباء الذين أنهكوني لمدة ثلاث سنوات بجلسات الكهرباء وصدماتها، وأنابيب المصل، والحقن الصفراء والحمراء. لا جدوى من مريض بورم في المخ، هكذا صرخت ذات مساء، وهكذا انتبهوا إلى أنني أدرك الحقيقة؛ فلست مجنونًا، لكن شيئًا ما يشتعل في رأسي، ربما كان الورم الخبيث، لم يمت به أحد من أهلي حسبما أعرف، وحدها أمي هي التي ماتت في ذروة شبابها، أذكر جيدًا حين وضعت جوال الدقيق وصرخت «رأسي.. رأسي» لم تمر ساعات وأهل الدرب بجوارها يضعون السمن البلدي في فمها ويصرخون بها أن تفيق، آخر ما أفاقت له أن حركت لسانها اليابس جدًّا وكأنه مشرف على العطب، «أريد مسعد، هاتولي مسعد». وما إن دفعتني الأيدي الكثيرة حتى عبرت مئات الأجساد والروائح الخانقة، وارتميت على صدرها، فناضلت ضد الموت لتطبع على وجهي قُبلة وتطلق روحها للريح، ساعتها تمنيت لو أن رأسي ينفجر وألحق بها، جلست أصرخ لكن «أنوبيس» لا يعيد موتاه، وساعتها تذكرت قُبلتها التي جففت الصراخ في فمي، فعلمت أن موتها لم يذهب بعيدًا لكنه سكن بداخلي.

ليس هذا كل شيء، فلدي تاريخ طويل مع هذا المرض، تاريخ يسبق موتها بزمن، ففي الرابعة من عمري كان شيءٌ ما يدفعني للعب فوق الصخرة التي تغطي البئر التي في زريبة بيتنا القديم، ولا أعلم لماذا كانت تضربني حتى لا أفعل..؟! «تخاف عليَّ».. هكذا كانت عيناي تستقبل الأشعة المنبثقة من روحها آنئذ. تخاف عليَّ فتدفعني إلى نفس الفعل، تضربني فأتحين الفرصة آن خروجها وألعب.

بالقطع لو أنني أخبرتها- بعد إفاقتي من الإغماء فيما بعد- أنني نزلت البئر المظلمة ولفحتني ريح باردة، ففقدت على أثرها وعيي، كنت سأنال عقابًا يشبه الموت عن طيب خاطر، لا أقول إنها كانت ستغرس سكينًا في عنقي، أو تعلق حبلًا في السقف لتشنقني، لكنها بهدوء ستشيح بوجهها عني وتصمت. أحمد الله أنني لم أفعل، أحمده أيضًا لأنه ألهمني الصمت وجعل لبعض عباده سمات المهابة، والفصاحة، وتصديق النفس رغم ما بها من جهل، وعدم معرفة بالحقيقة. فحين تدخل أم لتجد ابنها الوحيد فاقدًا للوعي، فلا يسعها سوى أن تصرخ بكل ما لديها؛ فيأتي الجيران ويستدعون طبيب القرية، ويخبرهم بفصاحة العلماء أن ما حدث «بعض إرهاق وسوء تغذية»، هؤلاء الأطباء ملائكة رحمة بالفعل، لا لأنهم

ماهرون في الطب؛ ولكن لأن الله حباهم سمات الثقة بالنفس، والجهل بأمور الآخرين.

ما حدث في البئر أمر أهون ما فيه أن يغمى على طفل في السادسة من عمره، بالقطع حين تحاول رفع صخرة حاول من قبلك عشر رجال ولم يفلحوا في رفعها فلا بد أنك أحد أنصاف الآلهة، وكان لا بد أن يستغرق التفكير في الحدث زمنًا ما، لكنني لم أكن منشغولًا بذلك، فقد رأيت في بؤرة الضوء التي سمحت بها الصخرة- بعد أن تزحزحت- رأس سلم حجري، ووجدتني أتحسس بقدمي الظلمة، وبرودة الأحجار وصمت آلاف الأعوام داخل ممر يحتفي بالصمت المقدس، وبالعتمة التي تُشق بقوة البدن. برودة ليست كالبرودة لكنها تشبه رائحة الموت أو الكفن، ممر طويل، شعرت أن الساعة قد مرت، وأمي قد حضرت وثمة شيء ما يدفعني، بؤرة النور التي أمامي أقرب إليَّ من النور الذي تركته خلفي، في البؤرة ثمة خمسة شخوص: امرأتان وثلاثة رجال، يرتدون ملابس كهنة، كبيرهم يقف في الأمام، ولا شيء يطبق على المكان غير الصمت، تمنيت لو لحظة من دفء الصخب الذي في الخارج، لأدرك أن هذا ليس هو الموت، قال كبيرهم ما «اسمك؟» وكأنني بحثت في الأرض من مشرقها حتى مغربها، بطولها وعرضها، وألوان شخوصها وساكنيها، فلم أجد اسمًا لي، وكأنني رسبت في امتحان عقابه الوحيد أن أظل طيلة العمر في هذه البرودة والعتمة، شعرت أنني أضعف من أن أتحمل مثل هذا العقاب، فخارت قواي، وسقطت كمن ترك ثوبه على الأرض، وجاء التابعون، من اليمين امرأة ورجل، ومن اليسار امرأة ورجل، فأوقفوني أمام كاهنهم الذي أخرج عصا كالصولجان أو مفتاح الحياة، وأشار إلى وجهي «نحن محكمة أشمون السفلية، باسم الكاهن الأكبر «راح حب» حكمنا عليه أن يرجع».

لا أعلم كيف خرجت، ولا كيف أغلقت البئر؟! ولِمَ لَمْ تسألني أمي عن ملابسي التي اتسخت؟! لا أدري، فلا جدوى من طفل سوف تقتله ذات صباح الحمى والصرع، سوف يقتله الفزع من الأشباح، هكذا فقدت أمي الأمل في، لكن الطبيعة تفعل دائمًا ما لا نتوقع.

5

يا إلهي، كل ما حولي صامت، ساكن لا حراك فيه، كأنه المعبد القديم، وكأنهم الكهنة المقدسون الذين يعرفون كل شيء ولا يتحدثون، لا شيء يهزمهم أو يثير مخاوفهم، كأنهم قطع من تماثيل الإله، وحدها الرسوم هي التي تتحدث، ووحدها النجوم هي التي تصيح في الفراغ منذرة بالخراب وما ستؤول إليه أشمون مدينة الرب، ووحدي أحمل الحقيقة عارية في صدري، ولا أجرؤ على إعلانها ولا أتحمل إخفاءها، فما الذي أصنعه حين أجلس على منضدة «أشمون» هل أصيح بهول ما أعرف أم أكتفي بالتحديق في الجدران والصمت! أنقذني يا إلهي! يا صاحب السمو في الأعالي! ويا مدبر الحكمة في عقل «تحوت» الحكيم! آمين.. آمين.

لم تكن هذه الكلمات هي أول ما أسمع، حين كاد السقف أن ينهدم علينا، فقد تعودت أن تتردد أدعية وترانيم في أذني وكأنها تأتي من عالم قديم أو بعيد، الشيء الوحيد الواضح فيها أن الصوت الذي يرددها لا كبير ولا صغير؛ لكنه باكٍ، يخرج من صدر صاحبه كالفحيح ليهدر في أذني، تعودت أن أرى العديد من الفراعين أو الكهنة يطوفون حولي، وربما يتحدثون معي أحيانًا، ولم أكن أدري هل هو الحلم أم الحقيقة، الحجرة نفس الحجرة، والسرير نفس السرير، لكن أمي ليست معي. حين حدث ذلك أول مرة لم أدرِ متى أنقطع الحلم، ومتى ذهبوا، لكنني وجدتها كأن لم تكن بجانبي من قبل، ووجدتني بدافع من الخوف أو الفرح أحكي لها، ضحكت وقالت إن ذلك حلم «وماتحكيش حلمك لحد؛ عشان أختك اللي تحت الأرض لو عرفت هتئذيك».

مرة أخرى يطلب مني الصمت، ليس من كهنة المعبد، ولا من رفقاء الحلم هذه المرة، لكنها أمي، وثمة من يعيشون تحت الأرض ولا أعرفهم، وقد يضربونني بالفعل، حكت لي يومها أن أحد الجيران «عجل حميدة»ما أنت عرفُه! ضرب قطة ذات مساء لأنها خطفت قطعت لحم من أمامه، وما إن ترك الطبلية وقام ليغسل يديه، حتى انشقت الأرض وابتلعته، وهناك وجد خمسة من الشيوخ وسيدة جميلة تقف بجانبهم، سأله كبيرهم «لماذا ضربت أختنا؟ أقسم بالله أنه لم يضربها وأنه لم يرها إلا الآن، فأخبروه أن القطة التي ضربها هي هذه السيدة، وأنها رفعت دعوى بالتعدي وطلبت بالقصاص منه، وعلى الفور تشكلت هذه المحكمة للبت في طلبها، لم يصدق نفسه وأخذ يركع أمامهم، ويقسم بالله أنه لم يكن يعرفها، وكان يظنها قطة غريبة فأكرمها وأعطاها قبل أن يعطي أولاده، لكنها جاءت وتمسحت، فزعق فيها أن تمشي فظلت في مكانها حتى غافلته وخطفت نصيبه، فلم يشعر سوى بالدم يغلي في عروقه، وانطلقت يده تعاقبها على ما فعلت، «وها أنتم الآن تقولون إنها أختكم، وإنني تعديت عليها، فهل أنا مخطئ؟».

- هل أعطاكي قطعةً في المرة الأولى؟

- نعم.

- وهل خطفتي منه قطعة في المرة الثانية؟

- نعم.

- إذَا أنت مخطئة يا أخت، وليس على الرجل ذنب، ووالله لو كان مخطئًا ما خرج من هنا، ولذا نحكم عليه نحن المحكمة السفلية بالعودة إلى أهله، على ألا يحكي شيئًا مما رأى أو سمع، وإلا لن يناله سوى شر العقاب. وفجأة وجده أهله بينهم، فلم يتركوه .. وظلوا يلحون عليه حتى حكى لهم، ورغم أنهم سهروا معه واطمأنوا عليه إلا أنه حين نام صحا على هيئته التي تراها الآن، لسان معقود لا ينطق، وظهر مقوس للخلف، وعيناه مقلوبتان، ويد ورجل شليلتان، والله أعلم بعقله وما حدث له، «زي ما انت شايف ... حاله لا يسر عدو ولا حبيب».

ورغم أنها كانت تحكي حتى أطمئن وأنسى حلمي، إلا أني امتلأت بالخوف، ومهما رأيت ومهما حدث فسأكتم سري بداخلي ولن أبوح به حتى لها، فبدأت رحلتي مع المرض، هلاوس وهذيان، وصرع، وبدأ الأطباء الحمقى يعرفون بيتنا، ويدلون بابتسامتهم وكأنهم ملكوا كُنه الحقيقة، مئات من الحقن وآلاف من حبات الدواء، وعشرات الآلاف من كيزان الذرة التي تفرطها أمي كل يوم في جيوبهم، وبطون المشعوذين ودقات أصحاب الزار. كانوا جميعًا مفسدين لأنهم يخدرونني، كلٌ بطريقته، حتى الأطباء أنفسهم يقنعون أبي أنني أصبت بالبرد وأهملت في علاجه، ويستدير أي واحد منهم ليعطيني حقنة المخدر، فأشكر له ذلك لأنني سأبتلع الكلمات في صمت، وأذهب مع الكهنة الطيبين.

6

«لا تخف من ذي سلطان ما دام سلطاني وملكي لا يزول، ولا من فوات الرزق ... ما دامت خزائني لا تنفد».

الشجاعة هي ذلك الشيء النسبي الذي يتفاوت من شخص إلى آخر، ومن زمن إلى زمن، قديمًا كان المرء بوسعه أن يلقي سلاحه ويواجه المدشن بالسيف والدرع والحربة، وربما الحصان أيضًا، الآن لا أظنه يستطيع ذلك، ليس لأن السيف لم يعد موجودًا، ولكن لأنه أصبح أكثر سرعة، كما أن القناص أو القاتل كثيرًا ما لا يكون على قدر شجاعة المواجهة التي نأملها منه، فلا يقول لنا قف إنني سأقتلك، لكنه يطلق رصاصته في جوف الظلمة، والأماكن المجهولة، كي تصيبنا في الصدر أو العنق. أعرف رجلًا كانت هوايته أن يطلق الرصاص على أصدقائه في العنق، لا علاقة لي به، لكن صيته كان يملأ أشمون بكاملها، ليس في أيامنا هذه، لكن في تلك الأيام التي كان قاطعو الطرق هم ملوكها، اسمه يتوافق مع جسده القصير وربما الدميم أيضًا «نونو»، هكذا كانوا يطلقون عليه، وكأنهم يخيفون الصبية في الدروب والحارات، وكأن كل أشمون كانت له ورجاله وحدهم، ويا لهذا المجد الذي يناله إنسان حين يصبح واحدًا من رجال «نونو» يحمل بندقيته ويمخر في شوارع البلدة ودروبها كأنه السيد يتنزه في مزرعته، يدخل الزرائب فيسحب البهائم ويمشي ولا شيء أكثر، هنالك يهرع أصحاب الزريبة إلى نونو الذي يقدر ثمن الفدية فيدفعونها، ويعودون ليجدوا بهائمهم كما كانت. نونو ليس لصًّا فقط لكنه قناص محترف يقتل على مسافات هائلة، وينام أسفل السرير فيجز رقبة العريس ليلة زفافه ثم يختفي... كم حاولت عائلات أن تثأر منه لنفسها، لكن الرعب وحده كان ينقذه دائمًا، وكأنه أحد رجاله المخلصين أو أشد أسلحته فتكًا. ذات مرة ذهبت عائلة بعد موت عريسها إلى أحد القناصة العتاة ودفعت له وأطمعته في المزيد إذا تخلص من نونو، وذات مساء وهم سبعة متحلقين حول النار على الساقية، يسقون حقلهم، وجدوا شخصًا يجلس معهم، كان نونو، وكانت «صرة» المال التي أعطوها لمن سيقتله تمد النار بمزيد من اللهب «اللي عايز ياخد تاره ما يكريش عليه، يبقى راجل وياخده بإيده». نزلت هذه الكلمات القليلة كالسيف على الألسن، وربما كانهيار جبل على صدر رجل عجوز، بالقطع الصمت هو سيد الأشياء، وهو وجه العملة الآخر للموت، حين يصبح الموت شخصًا اسمه نونو.

«أنا ماشي دلوقت اللي عايز ياخد بتاره يقابلني على الجسر». كان الجميع يودون لو يأخذون بثأرهم، لكنهم أخذوا بهيمتهم وتركوا الساقية تئن وحدها ليحتموا بجدران بيوتهم، ورحيق نسائهم، وهوات الصمت التي لا حدود لها. عشرات الأسر حاولت الثأر منه فأغرت أصدقاءه ورجاله فماتوا جميعًا،

كيف؟! لا أحد يدري، لكن صوت الرصاص كان يدوي في الليل الذي لا سيد له سوى نونو، حتى النهار كان يهبه ساعة القيلولة إمارة له ولرجاله من بعده، فالبهائم تخرج من المرابط والزرائب في هذه الساعة، وتعود أيضًا إليها في مثل هذه الساعة، الكل يعرف نونو حتى إن الشيوخ لا حكاية لهم سوى أفعاله وأخباره وصفاته، ومن أقواله «الباب الموارب ما تدخلوش، أما الباب المقفول اكسره وادخل، والباب المفتوح فصاحبه راجلنا»، قيل إن محمود أبو عطية أحد رجاله في بلدتنا أعجبته امرأة كان نونو قد قتل زوجها، فذهب لخطبتها فقالت له: «الراجل الوحيد اللي أفكله ضفيري من بعد جوزي هو اللي ياخد بتاره»، وقيل إن «أبو عطية» رغم شجاعته وجثمانه الفارع كان ضعيفًا أمام هذه المرأة، فأراد أن يملأ خيالها بفروسيته فقال «أجيبلك راسه على طبق» مرت ثلاثة أيام وذهب لزيارة نونو فجلس معه، وأصر نونو أن يتناول الغداء معه، ثم يشرب الشاي، ويذهب إلى أحد حقوله ليعطيه خرجًا من البطاطس، كان المغرب يوشك على الدخول حين ركب أبو عطيه على خرجه وحماره، وودعه صديقه وسيده نونو «مع السلامة يا أبو عطية»، لم يكد محمود يقطع نصف المسافة ما بين قرية نونو وقريتنا في غبشة المغرب، حتى وجد نونو أمامه على أحد المدقات التي تخترق الحقول، ساعتها علم أنها النهاية التي لا نهاية بعدها، اضطرب قليلًا ثم كثيرًا فكثيرًا، ثم خر من على الخرج والمسدس يشير إلى عنقه من بعيد، بينما كلمات كالحجارة المسومة تخرج من السيد الأول للإمارة «عايز رقبتي على طبق يا محمود! طب خد»، لم يصل إلى الأرض إلا ورصاصتان تفصلان رأسه عن جسده.

الغريب أن نهايته كانت في مستشفى، ولم تكن في الحقول ولا كجيفة في العراء، وأن قاتله ابتسم في وجهه وطعنه في وريده، بينما هو يقول لتكن النهاية هكذا. فحين خطط لقتل ابن أحد العمد تسلق الجدران وصعد الشباك، ونادى العريس الذي كان ملقى على عروسه، فما انتبه إلا والرصاصة تخترق العنق لتدفن الوجه الجميل في أخدود الدلتا. كان العمدة مهابًا وله رجال وأهل وخفر، فما أن سُمعت الرصاصة الغريبة حتى طوق الجميع البيت وأطلقوا الرصاص على جرذ يقطع الظلمة هربًا، أصاب الرصاص جسده، فألقى بنفسه في الريَّاح وسبح حتى أماكن مجهولة أنقذه الصيادون فيها، ولأنه مغمى عليه أدخلوه المستشفى، ولأن الحكومة والعمدة والقرى والفلاحين جميعًا يريدون الخلاص منه، فقد ذهبوا إلى المستشفى ورشَوا الطبيب، بل توسلوا إليه أن يخلصهم منه، ولأن الطبيب سمعه يهذي «مش هيعيش واحد منهم» فقد أخذ حقنة المخدر وملأها بقليل من السم وذهب يدسها في وريده، ساعتها قال له «أنا بقيت كويس، مش عاوز الحقنة»، فأومأ الطبيب دي آخر حقنة، فقال: «إذًا لتكن النهاية هكذا».

وهكذا فإن مفهوم الشجاعة أصبح شيئًا خياليًّا، وفي كثير من الأحيان فرديًّا، والشجعان هؤلاء الفرسان الذين انقرضوا ولم يعودوا موجودين بمفهومهم القديم، بل إن شجاعتهم اقتصرت على فردية يمكن للفرد أن يراها شيئًا من قبيل السذاجة، فمثلًا حين ذهبت لملاقاة والد مديحة في قصره المنيف، كنت كمن ذهب يحارب جيوش النعمان حتى يعود لحبيبته بالنياق الحمر، لا بد أن ذلك تهور يستدعي الضحك الآن، مثلما بالطبع قد ضحك كامل بيه على نفسه حين تصرف كأحد الممثلين في الأفلام المصرية القديمة، ألقى الكتاب الذي يحمله ونادى أحد الخدم «يا سعيد... يا سعيد ارموا الحيوان دا بره».

لا بد أنه كان يتصرف كنبيل يحافظ على التقاليد الراسخة في أسرته العريقة، بالطبع هكذا أفهمه المخرج حتى يظهر المشهد محبوكًا، ولو أنني المخرج أو حتى الممثل في هذه اللحظة ما كنت سأفعل بكل هذه الحدة، فقط كنت سأشير بإصبعي ناحية الباب، فلا بد أن هذا الشخص الذي جاء من هذه الطبقة العاملة ليخطب ابنة نبيل مثلي، تملؤه روح الانسحاق والشعور بالندم والخطأ، ويود لو تأتي روح من السماء فتخرجه بأسرع ما يمكن، فلم لا أكون هذه الروح؟!

على أي حال فشجاعتي انتهت بي إلى «علقة» ساخنة، أخذتها وعدت إلى شقتي، بينما شجاعة «حور محب» انتهت به إلى الهلاك، فحين أخبر والده أنه يعرف فتاة آمونية، خاف عليه وحبسه في بيته، لكن حين أخبره بعد ثلاث سنوات أنه كان يخرج كل يوم للقائها، وأنه لم يفلح معها في ممارسة الحب؛ حيث إن شيئه لم ينتصب، فقد أخذه من يده وأدخله المعبد وأغلق عليه، وفي المرة الأخيرة حين أصر على مواجهة الكاهن الأكبر كان نصيبه المرض والموت واللعنة.

7

المرأة هي المرأة، فلا تفتح صدرك كله لعطرها المقدس، فقط داعِبْها. واترك ابتسامة هادئة ترفرف حول هالتها من بعيد

«مديحة» فتاة تبدو من الوهلة الأولى تعي كل شيء وتفتح صدرها لكل شيء، حتى أتفه الأشياء تهتم بها، كما لو كانت حدثًا جللًا. هذه الطبيعة التي تمتاز بها جذبتني إليها، جسد نحيل وعينان واسعتان، وأنف صغير وفم صغير، ونهدان لا يزيدان عن حجم برتقالة. من نفس دفعتي وإن كانت تكبرني بعامين أو ثلاثة، فتاة معمرة في كليتها. حين تحدثت مع الزملاء عن الأشمونين وتاسوعهم المقدس، ومحكمة أشمون العليا ومنزلة الكاهن الأكبر، ذهلت لأنني أعرف كل هذا بينما هي طالبة الآثار لا تعرف نصفه؛ مما زادني في الحديث، كنبي يدعو إلى ديانة جديدة في سرية تؤدي به في النهاية إلى إقامة دولة يكون هو حاكمها الأول، وليس إلى الجلد أو دخول مستشفى المجاذيب.

فيما بعد علمت أنها في كلية الآثار وتحب الفرعونيات، وإن كانت لا تعرف عنها شيئًا، طمأنني هذا ولكني بدأت أتعامل بحذر، فربما يكون كهنة آمون قد دسوها عليَّ. هراء بالقطع، لكن ربما هي أيضًا وجدت السرداب الذي يؤدي إلى كهنة آمون، وربما يجيئون إليها كما يحدث لي في النوم، هؤلاء الكهنة لا يحدهم شيء ويحركون الأمور دائمًا عن بعد، ولا يستطيع أحد أن يقطع بوجودهم من عدمه.

ثمة بريق يترقرق في عيني «مديحة»، يجعل كل من يلتقي بها صديقًا من النظرة الأولى، ومن أول مرة نجلس فيها معًا كان البريق يشتعل بيننا، بينما آلاف من العصافير الخضراء كانت تطير في المسافة القليلة التي تفصل بيننا، ولا يمكنني أن أفصح عن ذلك أمام الأصدقاء الذين يعرفونها أكثر مني، كما أنني غير مؤمن بحكايات الشاطر حسن وليلى ابنة الأغنياء، فلا يمكن لفتاة ترتدي ملابس القطعة الواحدة منها تنفق على عائلة كاملة أن تنظر لشاب مثلي، ومن المرة الأولى، انطفأ البريق من عيني ورسم الصمت أخاديده على وجهي، ولم أنتبه إلا على ضحكاتهم المتزايدة، فوجدتني أسقط من قمة البرج أسفل أقدام الذين يريدون رسم أدوار الفارس أمام حبيباتهم، وشعرت أن المسافة التي ملأها العرق بين جسدي وملابسي تحتاج أن أسبح آلاف الهكتارات، ولا أصل بينهما، فمن الصعب على الذين يتمتعون بحصانة دائمة ضد البشر أن يتصوروا أنفسهم ولو للحظة واحدة لعبة أو مهرجين في بلاط الملك، لكنها- مديحة- بطبيعتها التي تهتم بأتفه الأشياء أنقذتني، راكلة آلاف السنوات من الحديث عن البروليتاريا وأبناء الذوات ومركبات النقص وجروح الكرامة، وخجل واحمرار وجوه أبناء القرى في كلمة واحدة، «خلاص يا جماعة... الظاهر مسعد ملوش في التهريج.. إحنا آسفين».

- لا أبدًا بس.....

- ما تقلقش نفسك دول شوية عيال، سيبك منهم.

مرة أخرى تركل آلاف الجسور والحوائط التي بنيتها، فتمسك بيدي وتجرني كطفل تعرفه منذ كانت تحمله على كتفها في لفافته، وتذهب بي إلى ركن بعيد من العالم لتحدثني عن نفسها، وفجأة تقول: «تعرف إنك فيك شبه من الوجوه المصرية القديمة، عينيك الصلبة، أنفك الكبير، وشك المسحوب، حتى عبوسك ونحافة جسمك».

عاد البريق إلى عيني وشعرت أنني حيٌّ أبحث في معبد «أشمون» وسراديبه عن الصور والتماثيل التي تشبهني. يا للكهنة الأغبياء طمسوا كل شيء فلا يتحدث سوى بالرمز، الصور رمز، والشمس التي انبثقت من المحيط الأزلي رمز، ومركبها الذي يمخر في السماء كل يوم رمز، الآلهة والتماثيل والعقارب رمز، لا شيء ينطق بالحقيقة كاملة سوى الموت، وحده الحقيقة التي تتحدث، فالتوابيت ترسم بالمقاييس المضبوطة، والصور كأنها أخذت بالكاميرا وكأنها بطاقة مرورهم إلى العالم الآخر، وليست رمزًا لعودة الروح.

- أستاذ مسعد.....

مرة أخرى أفيق على صوتها، لا أدري ما الذي قالته، لكنها كانت تتحدث وتتحدث، وأشمون تأتي بطرقها وسراديبها وحوانيتها، أشعر أنني جالس ومحكمة أشمون خلفي ترسم على رأسي مفتاح الحياة، وتتلو تراتيلها المقدسة.

8

لم تكن «آن» سوى مساحة الظل التي تأتي من بعيد، مساحة العشق لـ «تحوت» سيد المعرفة، أراها دائمًا بين النجوم الخافتة، تمسح براحتها صفحة السماء، تمسح فأعرف مسار النجم وموقع خفوته، متى يبزغ ومتى يلمع ثم ينتهي من جديد. يا لهول السماء، إن كل شيء يتمخض عن أيام وسنين، عن حروب ودماء، كل شيء مكتوب هنا، أيام المجد يتبعها هوان عظيم، أيام العز يتلوها فقر ومجاعات، ومن الظلمة يُولد النور، لكن كيف أقول إن حروبهم صغيرة لا تليق، كيف أقول إن نجومهم خافته ولن تضيء أكثر من مائة عام، وأن هذه الحياة سوف تصمت ولن تنطق سوى بما تركوه من رموز، حتى الرموز ستبزغ على فترات ثم يطويها النسيان. ما أصعب أن يموت الكهنة دون أن يشيعهم أحد. ما أصعب أن يموت العظماء دون أن يعلم بموتهم أحد.

هكذا الفراعين سيكونون كمن حفر لنفسه بئرًا ثم أغلقها على نفسه، ولا نهاية للصمت سوى الصمت، يريدونني أن أسكت وحين لا أفعل أتهم بالجنون، وأن النجوم أضلت عقلي أو أنني مهرطق خارج على التعاليم. ليتني أستطيع أن أرى نجمي، وحده الذي يخبرني كيف ستكون النهاية، وليتها تأتي الآن لتريني إياه.....

كم أود أن أرى نجمها، أريد أن أعرف هل حزينة هي أم سعيدة، هل طالعها سيئ أم حسن، ربما تكون سعيدة فأسعد لها، أو حزينة فأحتمل همها أيضًا، لتبق الآن معي صورتها الجميلة تمامًا كما تركتها عروسًا تخرج منداة من البحر، عروسًا يلفها «حابي» بذراعيه ودثاره الفضي الجميل، عروسًا يتساقط الدر منها كلما رفعت خطوها عن الماء وكلما وضعته.

9

ليس مفيدًا أن تبحث في تاريخ من أصبحوا في منزلة أعلى من البشر فأعمالهم لن تفيدك، والبحث عنها يؤدي إلى الموت

من كان يضحك على مَن؟ لا أعرف، أنا الآن بعد مرور خمس سنوات على انتهاء علاقتنا، خمس سنوات لم أفارق فيها جدران هذا المستشفى، أقول إنني لا أعرف! ربما كان كلانا يخدع الآخر، كلانا يحتاج إلى الآخر، كلانا يريد الآخر.... نعم كانت تريدني؛ لأنني الوحيد الذي سيعطيها ما تريد دون أن يدرك أنها أخذت ما تريد.

حين يقع الإنسان في حبائل امرأة، فإنه لا يستطيع الفكاك منها؛ فالنسوة كهنة آخرون يحركون العالم من بعيد، من خلف جدران معتمة، لا أحد يرى الكاهن ولا يسمعه لكننا نأتمر بأوامره، نظن قليلًا أننا ضحكنا عليه وفعلنا ما أردنا لكن ذلك بالضبط ما خطط له بمهارة فائقة، مهارة لاعب شطرنج يجعل خصمه يدخل الأماكن التي يريدها من الرقعة ثم ينقض عليه في وداعة ليأخذ ما يريد، يا لضعف الفريسة حين تسلم نفسها عن طيب خاطر، مؤمنة بأن هذا قدرها الوحيد، فحين تلمح الفرحة في عين آكلها سوف تقول إنه الحب وإنها المواساة وليس ثمة سلب أو شماتة، هكذا فعلت «مديحة» وربما «آن» أيضًا، هل كانت تعرف ما الذي سيحدث لفتاها الرقيق؟ هل كانت تعرف أنها تدفعه إلى جدران معبد لن يخرج منه حين تعرت وكشفت سرها عليه، حين أفقدت أعضاءه صمتها، وجعلتها تتيه في الفراغ ظمأً؟ وهل كانت تعرف أن عطشه سيورده موارد الهلاك لا النجاة؟

حين استسلم «حور محب» لتعاليم الكهنة المقدسين، كان يهرب من طلبها ويقتل عطشه في حب المعرفة، وحده كان يهرب ووحدهم كانوا يندهشون من نبوغه، فلا يمكن لكاهن لم يتم العشر سنوات بين جدران «أشمون» أن يصبح كاهن النجوم الأول. لم يكن قد تخطى الرابعة والعشرين سوى بشهور قليلة، يجلس على أحد كراسي الثالوث المعظم، هذه الكراسي التي لا يجلس عليها سوى الشيوخ الفانين، وأصحاب الظهور المقوسة، كان طبيعيًّا أن يحسده كل من في المعبد، فهو الوحيد الذي ضمن الجلوس على كرسي كبير الكهنة، هذا الكرسي الفارغ دائمًا، فمنذ أعوام خلت وكهنة أشمون لم يروا كاهنهم الأكبر، أعوام كادوا أن ينسوا فيها شكله وملامحه. حين مات الكاهن السابق تم انتخابه من بين الثالوث المقدس لـ«أشمون»، تقاليد لا يمكن العدول عنها، الكاهن الأكبر يدنو منه ثلاثة كهان يشكلون مثلث

«أشمون» المقدس، يتم اختيار أحد الكهنة العلماء ليصبح عضوًا في الثالوث المقدس بدلًا منه.

لا أحد يفوق ثالوث «أشمون» في العلم، وإذا حدث فلن يفوقه في الحكمة، وهم: كاهن تعاليم أشمون المقدسة، وصاحب الرسائل العديدة في بزوغ أنواره واتساع قدرته، وهو الكاهن «هات نب نخت» معلمك يا حور، ومعلم الكيمياء والهندسة والطب، هذا الكاهن المعمر الذي اختار مكان المعبد واختط أساس قيامه، ثم معلم السحر الذي يرأس الآلاف، ولديه القدرات الخارقة على الإيهام، والذي لولاه ما كان لأشمون هنا ذكر؛ فقد حمى هجرة الأشمونين من الجنوب إلى الشمال، فلم يدر برحيلهم أحد. ثم الكاهن الأكبر الذي على يديه تم الرحيل وبناء السد وتخطيط أشمون... هكذا قال صديقي ومعلمي «حتب نخت» ذات صباح.

ـ كيف كان هذا؟

ـ ليس مفيدًا أن تبحث في تاريخ من أصبحوا في منزلة أعلى من البشر، فأعمالهم لن تفيدك، والبحث عنها يؤدي إلى الموت، وشريعة أشمون أن من يتطلع إلى أنواره في قدس أقداسه يمحى ذكره من بين البشر، يكفيه فقط أن يذكر في محكمة أشمون، ويكون شاهدًا وحاكمًا على من يعيشون في زمنه من البشر، يوم تضع «ماعت» ريشتها على ميزان العدل. يكفيه أن تسجل أعماله هناك.

كانت يداه تشيران نحو قطب الشمس وكأنها تجمدت فلم تنزل حتى تمتم بالعديد من التراتيل وطلب الغفران والصفح؛ لأنه لم يقصد الإعلان أو البوح، على الأقل لأنه يحاول أن يجرح جدران الصمت المقدس. يا لهؤلاء الكهنة، بقدر ما يخافهم الناس يخافون أنفسهم.

10

تحكي أمي أنها كانت ترى في منامها رجالًا بملابس بيضاء يدورون حولها وكأنهم يقرءون التعاويذ، حين كاد السقف أن يقع عليها، وأنا في الثالثة من عمري، جاءها قطب الرجال.. هكذا قالت، لكزها بهدوء حتى أفاقت ورأته وهي ما بين النوم واليقظة، قال لها بشكل آمر «خدي ابنك واخرجي»، ولم تفعل سوى أن حضنتني، وقبل أن ينفتح جفنها من النعاس كنا في الشارع، هذا الجفن الذي بانفتاحه رأت السقف مطبقًا على الأرض، السقف كله ومرة واحدة على المصطبة التي كنا ننام عليها، السقف كله مرة واحدة كأنه لم يكن على حوائط وأثقال من خشب الكازوارين.

- هل هذا حقيقي يا أمي؟

- وحياتك عندي لم أفتح جفني إلا والسقف على الأرض.

- ولماذا لم تتركوا البيت؟!

- هو كان فيه مكان يضمنا غيره.

قالتها وغامت عيناها. كنت أرى في السحب التي تمر على وجهها ما سمعته من حكايا، فأبي واحد من أربعة رجال لجدي، لم يتعلم منهم أحد، وأوسع علم حصل عليه أحدهم هو أن يكتب اسمه، بالقطع لم يكن أبي صاحب هذا الحظ الوافر، لأنه كان صاحب خاتم، يقطعه عند ختام كل فترة حين يضيع منه، ورغم أن جدي كان موسرًا، واحدًا ممن يعدون على الأصابع في الغنى، حسبما تقول أمي وعمي الوحيد الباقي، غير أنه كان يرى الإنجاب ثروة غير التي يراها الناس الآن، فأنجب أربعة كان يقسم أعمال الحقول بينهم، ويجلس هو وجدتي يتسامران معًا، فذلك هدف ومتعة لا يستحقها سوى المفكرين أمثاله؛ لكن جدي كان أعمق من هذه النظرة السريعة، فبدون أن يعلم كان يمارس دور الكاهن الأكبر، هذا المختفي الذي يحرك العالم من خلف الجدران المظلمة، فالزيارات دائمًا قليلة وتكون في «المندرة» الأمامية، ويجلس العم الأكبر لها، وإن شاء جدي الحضور فعل، وقليلًا ما كان يحدث، لكن إذا كان الأمر مهمًّا يمكنه أن يتواجد دقائق بسيطة ثم يستأذن بسبب مرض ما، ويخرج موهمًا الناس بالعودة ولا يعود، أثناء تلك الدقائق يكون قد قال كلمته، وربما لا يقولها، فيأتي العم- وكثيرًا ما كان يحدث- إلى «مندرة» جدتي حيث الموقد المشتعل والبخور المنطلق والسرير ذو الأعمدة والساري، وحيث فارق المرض جدي وأخذ يداعبها بالكلمات والضرب الخفيف على الفخذين. بالقطع لم يكن للعم أن يقتحم هذا الخدر عليهما، فيطرق الباب أو يتنحنح قليلًا وينادي «يا حاج»، فيرد الجد بعد أن يكون قد أخذ سمت الوقار والهيبة المفترضة أن تبدو تجاه الأبناء، فيحكي مسألته، وهنا يقول له ما يفعل، وإذا كانت هذه المناداة بعد انسحاب الحاج من الجلسة، فلا يدخل ولكنه يسأله من على الباب «إنت رأيك إيه يا حاج؟»، وهنا تشد الخيوط وتتحرك العرائس، ويسير الكون كما يبغي القابع في الخدر الجميل أن يكون.

لم يكن جدي الوحيد الذي يفعل هذا في قريتنا، لكنهم أيضًا يعدون على أصابع اليد الواحدة، وكثيرًا ما تكون بينهم خصومات نظرًا لتضارب المصالح، ومن ثم فالقرية تتجزأ بينهم حسب المصالح التي

تربط العائلات فيها.

«لا شيء يبقى على حاله» كلمة جدتي العجوز؛ هذه التي لم أرَ من مجدها سوى الضفائر الصفراء الطويلة وعطر المسك وعصا البخور، لم أرَ الفطائر المدسوسة في الزبد، ولا اللحم الذي يضيع عليه فدان أرض كل عام، ولا السرير ذا الأعمدة المدهونة بماء الذهب، هذا الخدر الذي لم يره سوى جدي وأبنائه الأربعة من على العتبة فقط. لا شيء يبقى على حاله بالفعل، فالجد مات والأرض ضاعت، والأبناء تفرقوا وتخاصموا وتقاسموا، وصاروا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، وعمي الأصغر هو «صاحب النصيب الوافر من الحياة» هكذا كان يردد كلما أراد أن يعير أبي بفقره، تزوج من فتاة من عائلة ثرية وقفت بجانبه، فاشترى نصيب إخوته من بيت العائلة فيما عدا أبي، أبي الذي لم يكن نصيبه يقيم له بيتًا خارج البيت، وهنا بدأ في مضايقاته كما ينبغي لرجل يرى نفسه «صاحب الحظ الأوفر من الحياة». لا يخرج أكثر من حدود حجرته التي تضاء بلمبة نمرة 10، لا تقيم بهيمته في أكثر من نصيبه «الربع» حتى ولو كانت بقية الزريبة فارغة، وليس بها ظلف خروف، ضيوفه لا يجلسون في مندرة الضيوف لأنها ملك لجدتي التي تقيم معه، أبناؤه لا يصحبونني حتى لا تتسخ ملابسهم البيضاء.

ذات يوم قام الشجار العظيم لأنني أهرقت الماء في باحة الدار «كيف يكون هذا؟!»؛ تجمع عمي وزوجته وضربا أمي، حين ذهبت تشتكي لإخوته وكبار «الدرب» قالوا لها «اللي ما يشوف من الغربال يبقى أعمى، خدي ابنك وجوزك واخرجي، الله يوسع على خلقه» بالقطع لم يكن أمامها سوى هذا، لكن من الذي أشار عليها بإقامة بيت في الخرابة المجاورة، لا أحد يدري...! تقول أمي: «عابر سبيل قالها ورحل» قالها وكأن أذهانهم وعيونهم تراها لأول مرة «أي والله».... «ما تبنوها هنا فعلًا»، «أنا أجيبلكم شوية طوب، وأنا من عندي الخشب»، «وأنا البوص»، وفجأة وبعد ثلاثة أيام يبيع أبي غرفته الوحيدة في بيت العائلة ويسكن بيتًا ثمنُه عملٌ في حقول أهل الدرب لمدة سنوات.

11

الأرض أرضـــي والســـمـــاء ســـمـــائـــي
وأيـنـــما ذهـــب أبنـائـــي يجدونـــنـــي

حين قرر الآباء الطيبون أن يرحلوا من بلادهم القديمة، ويغيروا قبلة تابعيهم خوفًا وهربًا من الآمونيين الذين يزدادون يومًا بعد يوم، والذين سطع نجمهم على كل نجم؛ فخفتت ديانات وماتت آلهة، وقبل كهان ملكهم ودينهم؛ حتى إن معبدًا عريقًا كمعبد الأشمونين في الجنوب بات السوس ينخر في عقول ساكنيه، وباتت المجادلة حول الحروب التي لا طائل منها سوى دفن مئات المريدين تدب في أعضاء المعبد، حتى مجلس الثالوث المقدس سمع فيه الشجار ذات مساء، وحضره الكاهن الأعظم. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يفيق فيها خدم وكهان على صوت الجدران المغلقة، هذه الجدران التي غلفها الصمت منذ مئات السنين، فلا أحد يعلم أكثر مما يعلمه العامة عن المعبد، لا أحد يدرك سر هذا التناغم في العمل، سر هذا التنسيق الشديد، سر هذا الفناء في الصمت.

هذه هي المرة الأولى التي شوهد فيها الثالوث المعظم يخرج غاضبًا، وكل على حدة، لا أعلم من أين سرت المعرفة لدى الجميع بما حدث هناك، حتى أصبح اسم الكاهن «سقنن تب» مرتبطًا بالهجرة للمعبد الجديد، فهو الوحيد الذي طرح في هذه الليلة فكرة الرحيل، فقال: «لا بد للمعبد أن يبحث عن أرض جديدة ينشر فيها ديانته، هذه الأرض لم تعد لنا ولن تكون، كل شيء يذهب من أيدينا إلى آمون، كل شيء ينبئ بزوال ملكنا». كانت هذه الكلمات هي أول ما افتتح به «سقنن تب» حديثه، ظل الكاهنان «آش إيسن»، «خوم بخت» ينصتان في غيظ مكتوم، كيف يمكن لنا أن نغادر أرض الآباء ونتركها هكذا للآمونيين؟ كيف نتنازل عن معبدنا المقدس ليدنسه الآخرون؟

كانت هذه الأسئلة أول ما تبادر إلى ذهنيهما، وأول ما نطقت به الألسن معارضة حكمة الكاهن «تب»، خمس ساعات من ليل طوبة ولا يدفئ الجدران سوى اشتعال المناقشة، كان «تب» متكأ على تقارير الجيش والهزائم التي نالها في السنوات الأخيرة، فهو المسئول عن الجناح العسكري مع الفرعون نفسه، لكن الخروج عن أرض الآباء فكرة لا ترد على قلب كاهن مبتدئ، ولا يمكن للرعاة في الحقول أن تساورهم رؤوسهم بها.

«الموقف جد عصيب لا بد من المناورة، هكذا علمتنا الحروب»، قالها متوقعًا أن يحسم المعركة، «وأي أرض تنتظرنا بعد أن نترك ملكنا ومعبدنا؟ وكيف نقنع المردين لهذا المعبد أن «أشمون» سيغير قبلته، وهل تظن الكاهن الأكبر يوافق على هذا؟ قالها ساخرًا «آش إيسن»، قالها وما إن انتهت شفتاه من ملاطفة كلمة الأكبر وهي خارجة من بينهما حتى انشقت جدران الغرفة ودخل المقدسون حاملين المشاعل التي تطوي أروقة الظلمة تحت أقدام الكاهن الكبار، الكل بوغت وشلت أعضاؤه على ما هي عليه،

وكأنهم صور ليست منحوتة على الجدران لكن على المنضدة المستطيلة، هل ذكر اسمه هو الذي أحضره! أم أن أصواتهم التي أيقظت الجميع دون أن يدركوا خرقهم لعذرية الصمت المقدس! أشمون وحده والكاهن الأعظم هما الذان يعرفان، لم يتحدث ولم يبُح أيٌّ منهم، ولو بنظرة غاضبة؛ لأن عينيه كانتا منطفئتين تبحثان في رخام الأرضية عن شيء ما غير الحزن، ولو أنه ظل هكذا حتى نهاية الدهر لظلوا صخورًا نُحتت على أشكال رجال واقفة، لكن إشارة منه بالجلوس هي التي خلصت هذه الأحجار من الموت، فدبت في الأيدي والأقدام الحياة، لكنها لم تمنح الوجوه أكثر من تغير اللون الأسود إلى شتى الألوان، كان الصمت هو الغلاف الذي يشمل العالم الآن سواء داخل الغرفة أو المعبد ككل، وربما صمتت الكائنات التي تدب على وجه الأرض كلها آنئذٍ، الشيء الوحيد الذي قطع الموت والصمت معًا هو هذا السؤال «لماذا ارتفع الصوت في معبد الإله العظيم؟» فرغم أن الجميع شعر بأنه مكلل بالدنس غير أن الفرحة ما لبثت أن عادت إلى العيون، إذ إن صوت الكلمات حين تردد بين الجدران أعطى إشارة البدء لأن تدور العقول وتبدأ في العمل، إشارة البدء في عودة الحياة إلى أصحابها، عودة الأرواح إلى تلك الأبدان التي تحجرت وأصبحت تماثيل، لكنها لم تلبث أن دارت حتى نزلت عليها مطرقة الحكمة الفاصلة: «أقولها لكم: هو الرحيل».

مئات الأسئلة والأفكار كادت أن تقفز من بطونهم، مئات اللأات والاعتراضات كادت أن تقلق الصخر لتعلن عن نفسها، لكن الحكمة دائمًا تستند إلى بركان يغلق الأفواه قبل أن تفكر العقول في فتح الشفاه، هكذا قال أشمون: «الأرض أرضي، والسماء سمائي، وأينما ذهب أبنائي يجدونني». هل نسي المقدسون التعاليم أم دخلت على القلوب الرهبة من آمون؟! كانت الكلمات تتقطر من شفاه الكاهن الأكبر كالعسل المصفى، أو كالسم الناقع في الأبدان، ما أن تلبس العقول أن تعود للراحة في أماكنها حتى تنهمر القطرة كنوبة الفيضان التي تعم البلاد في ليلة واحدة، ولأن آخر الفيض ليس قطر الندى لكنه السيل العرم، فقد قال: «اذهبوا الآن، وليأتيني المبجل تب وحده في الصباح»، وهكذا اختفت هرولات المقدسين حملة المشاعل، وخرج المقدسون الثلاثة أبدانًا بلا أروح، أو أرواحًا ذبيحة تضرب في كل اتجاه، ليس بحثًا عن أبدانها، ولكن عن إجابة لـ «ما الذي يحدث؟!» سنوات طويلة مرت ولا أحد يعلم ما الذي قاله الكاهن «تب» للكاهن الأعظم، سنوات انتصر فيها الأشمونين، وساد السلام مع الآمونيين، سنوات مات فيها الكاهن الأكبر، و»تب» و»آش إشين» لكن الفكرة لم تمت، أن يكون لنا ملك آخر ننشر فيه ديننا، ونلوذ إليه وقت الهزيمة، فهذا ما حلم به المريدون فيما بعد، وهذا ما استحث الفرعون على إرسال المبعوثين إلى أرض جديدة في الشمال، تشبه بداية الخلق، حيث قمة اليابسة التي نبتت من الماء، يعلوها معبد «أشمون» الجديد، وكأنه الشمس بزغت من محيطها الأزلي، أو «تحوت» العظيم، وقد تفتحت عنه زهرة اللوتس المقدسة.

12

هذا الصباح جاءني طبيبي المبتسم، صرت أشعر بارتياح ما تجاهه، فهو في العموم شاب مؤدب لا يحب الحديث كثيرًا، ربما كان أكثر مهارة من الآخرين، على الأقل عن الذين أنهكوا جسدي ثلاثة أعوام بصواعق الكهرباء، فقد أصبحت أفضل قليلًا عما قبل، ولم تعد الصواعق التي تأتيني من داخلي بنفس الحدة، وربما أصبح جسدي أكثر قدرة على المشي.

سألته عن إمكانية الخروج لحديقة المستشفى ولو لدقائق قليلة، ابتسم في هدوء ونظر في الورقة المعلقة على شباك السرير، ثم قال: «بالطبع»، ورغم أنها كلمة واحدة خرجت من فمه في بساطة أن يلقي بورقة في سلة المهملات، غير أنها كانت بالنسبة لي نفخة الروح في الجسد، ثلاثة أعوام لا أتحرك من غرفتي هذه سوى لغرفة الصواعق، ستة أشهر منذ منعت عني وأنا حبيس هذه الجدران، كل يوم تأتي ممرضة بالورق الأبيض، وبعض الأقلام كل أسبوع، وبديناميكية واضحة تأتي كل سبت وثلاثاء فتغير مفارش السرير، وتضع غياراتي النظيفة على المنضدة إلى جانب الورق، فأقوم في ديناميكية مشابهة لأبدل ملابسي وأضعها في كيس معد لذلك، ثم أسحب الأوراق والأقلام وأجلس في صمت.

مرة واحدة خالفت فيها هذه الطقوس وسألتها «من الذي يدفع ثمن هذه الأوراق؟»؛ فأجابت بنفس الآلية «الدكتور هشام». حزنت ساعتها لأنني أكلف شخصًا ما أشياء لا طائل منها، لكني شعرت أن ثمة شخصًا ما يضحي من أجلي، شخص لا يريد مني شيئًا لأنه على الأقل لا يلح في معرفة نتائج تضحيته، أردت أن أقول لها لا تجعليه يبعثر أمواله على مريض مجنون، لكنني شعرت أن لديها هذا الشعور، وأن كلمتي هذه ستزيد مخاوفها، إن لم تؤكدها تمامًا، فآثرت الصمت والانزواء إلى المنضدة، فحديث كهذا سيجعلها أكثر حيادية عما تفعل الآن. ومن ثم صرفت النظر عن الفكرة برمتها، وقلت لو كان لي أن أرد جميله فعلي أن أثبت نجاح الفكرة، على أن أساعده في العلاج، هذا هو الحل الوحيد، وكلما تذكرت هذا أخذت يدي تسرح على الورق، فأنسى ما برأسي من ألم وأكتب.

أعرف أنني لا أكتب شيئًا عظيمًا ولا منسقًا، ولكن إذا كان تصوره عن علاجي قائمًا على هذا الفعل فسوف أفعله، بل إنني سأترجم كل ما أتذكر من مذكرات «حور» وأضمها لما أكتب، فربما كانت هي سبب لعنتي، وإذا سكبتها على الورق هدأ الغليان، وصرت أكثر تناغمًا مع الحياة.

13

لا أعتقد أن مديحة أحبت اللوحة التي رسمتُها لأمي لأنها تحمل الحب والمودة اللذين كان يجب أن أظهرهما نحوها حين ماتت، فلا أحد ممن اتهموني بالجحود يمكن أن يصدق أنني أحبها أكثر مما يحب أي طفل آخر أمه، ليس لأنها كانت الملاذ الوحيد لي، ولكنها الوحيدة التي كانت تفهمني دون أن أنطق، الوحيدة التي كرهت أن أوصف بالجنون، الناس جميعًا حتى أبي أقروا ذلك؛ وإن لم ينطقوه بأفواههم، ربما لأني طفلها الوحيد، وربما لأنها تكره أن ترزق بطفل وحيد ومجنون. الخلاصة أن آلاف الأشياء والدوافع جعلتني لا أتصور الحياة بدونها، جعلتني أرتبط بها أكثر من كل من حاولوا العطف عليَّ بعد رحيلها، فالذين يمدون يد المساعدة للمرء حين يحتاجهم- ودون أن يطلب ذلك منهم- يحتلون دائمًا مساحات من الود أكثر من عابري السبيل، الذين يهللون وقت النصر ولا نراهم وقت الشدة، بالقطع ليست أمي أكثر عبقرية عن غيرها من النساء والأمهات؛ لكنها أكثر دراية ومعرفة بشخصية طفل عنيد تملؤه الهلاوس، طفل يعيش في عالم غير الذي يعيش فيه الآخرون، ربما كان عالمًا سفليًّا حسبما اعتادوا أن يقولوا، فهذا معروف لي منذ مرضت في طفولتي، بالتحديد في الوقت الذي اعتاد إخوتي أن يموتوا فيه، وقتها أشارت بعض النسوة عليها أن تسأل العرافين، ووقتها نصحوها أن تتركني في المقابر ساعة صلاة الجمعة ثم تعود لتأخذني، «هناك سيصعد السفليون ويقرءون عليه صلواتهم وتراتيلهم، فيمتنع جسده عن الأرض»، ولم تدر هل يعني ذلك أن تتبرع بي لهم، أم أنه فقط يعني مشاركتهم لها فيَّ.

ما حدث بعد ذلك جعلني أوقن أنني نصفان، نصف سفلي من المدينة القديمة ونصف علوي حيث أهلي وقريتي، ولم يكن سني يسمح لي آنئذ أن أخزن في الذاكرة ما رأته عيني ولم أنطق به، فطفل في الثانية من عمره ليست لديه ذاكرة للاستدعاء، بقدر ما لديه من حجر ينقش عليه طلسمًا يرافقه مدى الحياة، وحدها أمي كانت تدرك ذلك، فنصف طفل خير من لا شيء، فرضيت بذلك وأكثر منه حين قالت: «ياخد عمري بس يعيش»، ورغم أن العرافين كانوا يبدون غير محتاجين لأكثر من ديك وأربعة أرطال من السمن، إلا أنهم خدعوها بالفعل وأخذوا نصف عمرها فماتت ولم تبلغ الخامسة والثلاثين، ماتت بلا سبب واضح، سقطت أمام طلمبة المياه «رأسي .. رأسي» صرخة ضعيفة مكتومة بقدر ما تحمله من ألم، مرة واحدة سقط الجمل وكبا الجواد، يا لأبناء القرى ... يسقطون هكذا مرة واحدة كأنهم نوعٌ من الحديد الصلب الذي لا ينثني، وإذا ثُني كُسر، وإذا كبا مات وحُمل في النعش، حيث لا أدري ملائكة أم كهنة.

في الجنازة لم يكن المشهد ينم عن وفاة ثري أو أحد من كلابه، بالكاد كانوا يجدون من يحمل النعش ومن يغير معه، أربعة من العجائز وأبي، أربعة من العجائز ونصف دستة من «المولولات»، هؤلاء اللائي تبرعن للعمل هذا اليوم، بلا سبب معلوم، وليس للأمر علاقة بالكهنة هذه المرة، فرجل في ريعان الشباب لديه طفل مريض بالصرع- سيموت حتمًا عما قريب- يعد فرصة نادرة كزوج لأي منهن، أسابيع طويلة لم ترحل فيها المولولات عن بيتنا، أسابيع طويلة وهن ملائكة رحمة أنبتتها السماء لأجلنا، لكن الرجل مات أيضًا حين ماتت زوجته، مات فلا وجود لأي من المفاتن المعروضة ببذخ في عينيه ولا صدره، فالرجل اجتث عضوه ووضعه في المقبرة، كآخر التذكارات التي يمكن أن يمنحها رجل لزوجته،

كنت أظن أنني الحائل الوحيد بينه وبين الحياة، فنبشت القبر بإبرة وقلت: لمَ لا تتزوج؟، كان القلب مظلمًا أشبه بالبئر التي نزلتُها، مظلمًا ومليئًا بالهموم والصمت، جدران تنشع بالرطوبة ورائحة التهدم، حين تحرك اللسان قال: «تفتكر بعد ما نموت هيكون فينا نفس للفرح؟!... متصدقش».

كان البكاء هو الفعل الوحيد الذي حضرني وقتذاك، وكانت عظام صدره هي القبر الذي يمكنني الدخول إليه، عظام نخرة كغاب النراجيل في القرى، طَردتُ مَن في البيت وأغلقت الباب وجلست بين النور والظلمة وبكيت، فرأيت وجهه في الركن المقابل يبكي.

سرت شائعة في الدرب أنني كنت أكره أمي لأنها منعتني من الموت «شفتي الجحود؛ تفديه بحياتها ويعمل فيها كده»، «من ساعة أمه ما غيرته وأنا قلت الواد دا هيطلع مخاوي»، «دا حتى مرضيش يمشي في جنازتها ولا يحضر عزاها، ربنا يلطف بعبيده وما يدناش عيال جحده زي دا».

- أنا آسف كنت أتمنى حاجة تانية، الصورة دي هي الشيء الوحيد اللي بيربطني بيها دلوقتي.

- بس بشرط ترسم لي صورة دلوقت.

- صورة واحدة! اقعدي، فين الحامل؟

كانت هذه هي المرة الأولى التي تطلب مني أن أرسم لها صورة، فرغم أننا زوجان منذ ثلاث سنوات لكنني لم أفعل، ولم تطلب هي، كانت يدي تمشي على اللوحة كأنها تخط على وجه الماء، لم أفكر في إعادة خط تركته في البياض.

حين انتهيت جلست تضحك، فثمة وجه آخر وزي آخر لا أظننا نعود إليه مطلقًا، لكنه يجيئونا من بعيد عبر الحلم والسراديب ووجوه الكهنة، ولم تكن الريشة ريشتي، ولا اليد يدي، لكنها الخطوط والألوان التي تنطق بما عجز الصمت أن ينطق به، الخطوط والألوان التي ودعت عصر صمت وبدأت في الكلام بوجه «آن» الجميلة، هذا الوجه رأيته متى؟ أين؟ لا أدري، لم يكن في المعبد ولا في الشوارع أو الحوانيت المغلقة، لم يكن في البيوت ولا بين «المولولات» أو نساء قريتي- لم يكن مطلقًا سوى في الحلم وأوراق «حور»، نعم.. فقط أوراق «حور» ولكن هل يمكن أن تصنع الأوراق كل هذا دون أن ندري؟ كان وجهها يضحك، وصدرها يضحك، وعيناها مشدودتان إلى البعيد حيث صفحة الأفق، وحيث النجوم التي ترقص في السماء.

- أنا هسيبك النهارده لأنك مش مظبوط خالص، وبكره ترسمني أنا مش الفراعنة بتوعك.

- لأ استني قربت أخلص.

- لا يا عم انت مش معايا، سلام.

حين انتهيت، كان موتور عربتها يقطع مجرى الشارع بعيدًا، ليتها انتظرت لأرى الفارق بينهما، لا أظنه أكبر مما أرى بكثير، فهي هي، وأنا هو، وكلنا شخوص واحدة تعيدها الأيام، كلنا شخوص واحدة، الفارق الوحيد مئات السنين والسراديب المظلمة وهذا الصمت الذي يتحدث، لا شيء يتغير، فلمَ لا نقبل الأشياء كاملة؟

14

لكنني يا سيدي غير راض عن نفسي.
لا يهم، فمن رضي عن نفسه كان شيطانًا
يعيث في الأرض، أو إلاها نزل من السماء
ليمشي بين البشر، وذلك مستحيل.

في الصباح جاءني كاهن التعاليم القدسية ليتناول معي الحليب والفطائر الطازجة، أشعلت قليلًا من العشب وصنعت كوبي شعير أضفت إليهما اللبن، وقدمت واحدًا له ثم سألته عن حاله، لكنه كان مأخوذًا بتصاعد البخار من الكوب، دقائق مرت وهو مطرق ينظر إليه، تركته يستمتع بلحظات التأمل، فهذا جزء من العبادة داخل المعبد، «أن تتأمل وتفكر بصفاء ذهن فهذه نعمة من الله، عليك أن تحوزها كاملة»، هكذا علمني هو في أيامي الأولى، وددت لو أقولها له؛ لكن هل يمكن للتلميذ مهما علا في الدرجات والرتب أن يذّكر الذي علمه بما قال؟! كان يقرأ ما يدور بداخلي لحظتئذ، فرفع عينيه قيلًا عن البخار وحدق في وجهي بهدوء «نعم يا حور... أن تتأمل بصفاء ذهن؛ فهذه نعمة من الإله علينا أن نحوزها كاملة، لكن من أين لنا هذا الصفاء؟ أنت ترى أحوال المعبد تزداد في السوء كل يوم، آمون يسطع نجمه ونحن نتوارى كل يوم، حتى بعد أن رحلنا وجئنا إلى الشمال، تركنا لهم الجنوب بأكمله وجئنا إلى هنا لكنهم لم يتركونا، فالأخبار التي تتردد بين جدران المعبد لا توحي بخير عن الجيش وهزائمه، أخبار عن الفرعون الغارق في ضعفه غير القادر على حماية ملكه، ليس ملكه وحده الذي يضيع، لكنه دين بأكمله، معبد بأسره، ولا تشغلنا سوى الدسائس والصراعات حول الثالوث المقدس، ومن سيخلف الكاهن الأعظم، انظر إلى أين وصلنا؟ كيف تحولنا إلى مهرطقين يا حور؟!».

شعرت بحزن الأب المقدس، حزن يشبه حزني، وأسف هو جزء من أسفي، هل يعلم ما سنصير إليه في يوم من الأيام؟ لا أظنه يعرف الحقيقة كاملة، فماذا لو قلتها له؟ هل ينسيه هذا حزنه أم سيقضي عليه، لا يمكن لكاهن تخطى الثمانين من عمره أن يتقبل فكرة كهذه، ولا يمكن أن أقول له أن ما صنعتموه طيلة هذه السنين سوف يندثر ويموت بموتكم، وأن تعاليم هذا المعبد هي أول ما سيقضى عليه، هذه السرية، وهذا الصمت، هذه الطلاسم والسكون المحكم، كل شيء... كيف أخبره بذلك؟!

حين أفقت من شرودي وجدت وجهه الذي نحته الزمن يبتسم لي، «جئت أشكو إليك حزني، أراك أكثر مني حزنًا»، تأملت كوب الشعير، كان البخار قد هدأ، فتناولت رشفة، وكان اللبن المخلوط به قد صنع مذاقه الجميل فتلذذته قليلًا وبانتباه أكثر قلت: جميعنا لديه أحزانه، لكن دعني أسألك يا سيدي عن سبب اختيارنا هذا المكان لإقامة المعبد؟ ابتسم قليلًا ثم نظر إلى كوب اللبن، رفع عينيه فيَّ وقال: «أراك أحسنت يا حور، خدعة مبرأة من الدنس سأتقبلها منك لأني أحبك، فأنت أفضل التلاميذ الذين علمتهم، أو

قل شاركت في تعليمهم، وأنت واحد من الثالوث المقدس، وأولى بي أن أغار منك، لكن أشمون لم يخلق أبًا يغار من ابنه، لذا أحبك رغم شرودك وانعزالك وحزنك، أقول هذا ربما بدافع من أبوتي نحوك، فأنت لا تبدي غضبًا من أحد، ولا تبدي حبًّا لأحد، أنت بيننا وكأنك لست منا، خارج عن الزمن، لا تنفعل بما ينفعل به الناس، ولا تغضب مما يغضبون منه، ولو أن هناك ما تحبه أو قل ما يتضح لك حبه فهو معبد أشمون، وربما أشمون ذاته، لم تكن يومًا منشغولًا بالتاسوع ولا انحداره، ولم تكن مجيدًا في شيء بقدر إجادتك لقراءة النجوم، الشيء الوحيد الذي تفعله بنفس إجادة الصلاة حين أراك وأنت على قمة المعبد، مجاورًا للقمة المذهبة، ساهرًا تحملق حتى الصباح، وكأنك قطعة من الحجر، لا تشعر بالبرد ولا الثلج، لا تشعر بالخوف ولا الظلمة اللامتناهية، لا تشعر حتى بنفسك وأنت عائد محمومًا كل صباح، فلا أعرف هل كنت تسطلع النجوم أم تصلي، مرة سألني أحد الكهنة، لماذا لا يصلي حور معنا ولا يحضر تراتيل المساء؟ هذا السؤال لم يدر بخلدي سوى هذه المرة، تفكرت كثيرًا قبل أن أرد عليه، ولحسن حظك كان الكاهن صبورًا وملحًّا أيضًا، جلس بجانبي حتى استفقت وكرر سؤاله ثانية، فقلت العبادة ليست بالتراتيل فقط لكنها بالحب، والحب هو الإتقان، أحب ما ترى وأتقن ما تحب حتى تذوب فيه، فهكذا تعبد أشمون، وهكذا تعرف الطريق إلى دجحوتي.

ـ لكنني يا سيدي غير راضٍ عن نفسي.

ـ لا يهم فمن رضي عن نفسه كان شيطانًا يعيث في الأرض، أو إلهًا نزل من السماء ليمشي بين البشر، وذلك مستحيل.

وددت لو أقول لمعلمي لا تحزن، وليست أشمون وحدها التي ستندثر، حتى الذين سيهزموننا أيضًا، لا شيء يبقى على حاله، هكذا مشيئة أشمون، وحده هو الذي سيبقى، سيغير جلده وأسماءه، سيغير هيئته وينتقل من بلد إلى بلد، ومن شعب إلى شعب، لكنه سيبقى معبودًا حتى آخر الزمان، سيجيء من يعبدونه بثالوثه المقدس، ومن لن يعبدوه أصلًا أو يجعلوه المعبود الواحد، ستجيء ثورات وأمم سيكون سيدها، ويكون كلمة السر فيها، كدت أقول إنني أحبه حتى إنني أضجر منه أحيانًا، أحب خلوده وذكاءه، أحب مسايرته للأزمنة ولا محدوديته، أحب صفاءه وقدرته، جبروته وظلمه، أحب رحمته وبهاءه، أحب نوره وآلاف الصفات التي لا تنبغي لأحد غيره، فلماذا يفعل كل هذا في مريديه؟ ولمَ يريد لهم دائمًا الصراع والموت؟ لم لا يعلمهم بسره وأسمائه ويجعلهم يتفقون عليه؟ ولم يرتدي آلاف الأثواب والأسماء والألوان والشعائر؟ لم كتب عليهم كل هذا الشقاء من أجله، وهو واحد، هو نفسه. الآمونيون يقاتلون من أجل اسم، والأشمونين من أجل اسم، وأصحاب الأنوف المدببة الذين سيأتون من الشمال يحاربون من أجل اسم، وهؤلاء الذين سيأتون من أقصى جنوب الشرق، وهؤلاء المعمَّمون ذوو الأنوف الكبيرة والعيون الواسعة الذين سيدخلون بلادنا على جيادهم البيضاء، هؤلاء الذين سيمحون كل ذكر لنا ويكرهوننا ويحبوننا في نفس الوقت، هؤلاء أيضًا يحاربون من أجل اسم، فلمَ كل هذا الدم، وهل هذه مشيئته؟!

حين أفقت لم يكن الكاهن الذي بجانبي بل عشرات الكهنة، ولم يكن مذاق الشعير باللبن الذي يملأ فمي بل خليط من المرارة والعشرات من الأعشاب التي طبخت معًا، فجعلتني أغوص في بحر من العرق اللزج، ومُدثرًا بالعديد من الأغطية، حاولت أن أقوم لكن عشرات الأيدي، عشرات الابتسامات الواهنة، والكلمات الحزينة المجاملة منعتني.

لم أنصت إلى شيء بقدر ما كنت أنصت إلى خوفي من أن يكونوا قد سمعوا شيئًا، سألت بكل ما تبقى فيَّ من عزم، ما الذي حدث؟ وحده صوت رفيق الصباح كان يشق الصمت؛ ليهمس في أذني «لا

شيء يا بني، لا شيء... فقط تناول هذا الشراب، وفي الغد ستصبح أفضل مما أنت عليه».

15

أين هم الآن؟ لماذا تركوني كل هذا الوقت؟ هل هي معهم أم أنها مؤامرة أخرى؟ لا أعرف، يبدو أنني مجنون بالفعل، لكن المجنون لا ينشطر نصفين- نصف معه ونصف ضده- لأن المجنون يتسق تمامًا مع أفعاله، ويوقن أن ما يفعله هو ما يجب عليه فعله، في هذه اللحظة وفي هذا المكان، دون أن يسأل نفسه كيف، ولماذا، وما الذي سيترتب على ذلك؟ ربما كان أسعد مني لأن اللعنة تكون على قدر الشكوك، وشكوكي بلا حد، ودوامة أوسع من أن يتقبلها بشر. بيني وبين الجنون شعرة، فقط شعرة واحدة، آه.. لو تنقطع، سوف أصبح أسعد البشر، وسوف تنتهي متاهتي، تلك المتاهة التي لازمتني طيلة حياتي، فمثلًا حين رفض أبي زواجي وهددني بالطرد، درت على وجهي في كل الأماكن، لا أعرف أين أذهب ولا كيف؟ من مقهى إلى مقهى، ومن شارع إلى آخر، أريد أن أتخلص من نفسي، حتى أتخلص منها، يا لها من عاهرة قالت ولم أصدقها، قالت وظننتها تريد أن تثيرني حتى نتزوج «لو عرفتني مش هتقدر تنساني» يومها ضحكت، ويومها زمجرت كلبؤة عجوز وقالت: «عاوز تجرب ياللا نروح شقتك» وبعفوية طفل وعناد محارب قديم قلت: «هيا». تركنا المقهى الذي كنا نجلس عليه، تركت دفء الجهل وذهبت، هي لعنة الكنز المغلق دائمًا، ما كنت أصدق أمي حين كانت تحكي عن الغرفة المغلقة، الغرفة الوحيدة المحرمة، كنت أظنه حكي حواديت، فأين هي القصور الآن، وأين الذهب والفضة؟ وكيف لأمي المنقوعة في الفقر حتى رأسها أن ترى ذلك؟ لكنني فتحت الباب وملأت ناظري، حملقت مشدوهًا بالسر، لكنني لم أكد أشرب من النبع حتى ذهب الكأس من يدي قبلما أشبع، فدرت مجنونًا أبحث في كل الأماكن التي تعرف رائحتها، أسأل الأصدقاء والأعداء والخدم، أسأل الطيور المهاجرة والمستقرة التي لم تخرج من أقفاصها ولا مجيب. هل خدعتني..! وهل هذا ما تريده مني، أن أرى النبع ولا أشرب؟ أغلقت باب شقتي على نفسي، شهرًا؟ شهرين؟ قل شهورًا... لا أدري، حاولت أن أفني نفسي، يا لهؤلاء العماليق الذين يمتلكون شجاعة قتل أنفسهم، بجسارة النبلاء يضعون السكين في قلوبهم، أو بروحانية المتصوفة يطلقون أبدانهم كريشة تهبط في الفراغ من أحد الأبراج الشاهقة، ليتني أقدر على ذلك، فالجبناء مثلي لا بد أن تصيبهم لعنة الوساوس، ولن تنقذهم أيدي الكهنة أو الملائكة، لن ينقذهم سوى الموت. بعد فترة أصبح الموت ينمو بداخلي؛ فلا أشعر بما تلمسه يداي، جاءني بعض زملائي، حملوني إلى بيت واحد منهم كشبح أخرجوه للتو من كهفه، شعر طويل أشعث، ولحية لم يمر عليها مُوسي منذ أزمنة بعيدة، جسد نحيل يكسوه السواد ورائحة العرق، ورغم أنهم أزالوا ذلك عني، غير أنني ما زلت أرفض الحديث معهم وألعنهم. لماذا قطعوا شجرة الموت بداخلي؟ أيام فقط.. وفروعها ستصطدم بسقف الروح، أيام فقط.. وكنت سأنتهي مني، ومن مديحة، وجسدي، والكهنة، وكل شيء. يا للسفلة، أيام.. أيام فقط...

في الصباح حملوني إلى المدرج، تحدث الدكتور عن الاستلهام من الطبيعة الصامتة، تحدث كثيرًا، وفي نهاية المحاضرة توجهنا جميعًا إلى المرسم، قال: أريد أن أرى أفكاركم حول موضوع المحاضرة. كنت مهملًا وسعيدًا بهذا الحظ، جلس كل منهم أمام حامل اللوحات وجلست بنفس التقليد، كانت ابتسامة عريضة تغلف المكان، ويرتسم جزء منها على وجوههم، لم يقطعها سوى توجهه إليَّ، لم يكن صوته

يخصني؛ لكنه كان موجهًا إلى شخص يرقص هزيلًا أسفل شجرة الموت، صوت يحثه على قطعها «مسعد هو الإنسان الوحيد اللي يعرف معنى الاستلهام من الطبيعة الصامتة، ها يا مسعد، مش عايزك تكلمهم عنها، علمهم بس من خلال الريشة يتعاملوا مع الطبيعة إزاي، وإزاي تطلع اللي جواك ع الورق».

طأطأت رأسي، لا أدري لماذا! واستدرت وليس في ذهني شيء؛ لكن وجهها يتقافز، وجوههم، عوالمهم السفلية، أزياؤهم القدسية، وجه مديحة، مفتاح الحياة، عين الصقر حوريس، ريشة ماعت، قوام إيزيس، ابتسامة «أشمون» المضيئة في الأفق. الريشة تسري بلا انحناء أو خطأ، وحدها تعرف مسارها النجمي، تعرف خرائط الجسد، ملامح الوجه، وحدها تنطلق بما تنداح به الألوان؛ فتخرج آلاف الأوضاع والأزياء، آلاف المعاني التي تدور على وجه واحد مستدير، ذي عيون سوداء، وشفاه رقيقة، وخد أسيل تنسحب عليه الدموع كحبات الندى، هي مديحه ذات الألف وجه، ذات القدسية السفلية، ذات الهروب والخيانة واللعنة.. سوف أقتلها، سأغرس الريشة في كل جزء منها، سأفض تشريحها وأبصقها على اللوحة كحشرة قذرة... سوف...

لم أشعر بـ «سوف» تنتهي، إلا وشجرة الموت تقع على جدران روحي. حين صفق الجميع بعد أيام لم ينجز فيها الزملاء سوى لوحة أو لوحتين، وتوقد مرسمي بعشرات اللوحات، ذات الوجه الواحد وآلاف الدلالات، هللوا جميعًا، لأنني عدت حيًّا، دماء تجري وأعضاء تمرح، ابتسامة تترقرق على الوجه، وشموخها يتصاعد. وقف المشرف منبهرًا وخرجت من عالمي لأجدهم يهللون بالتهاني، فوقفت أرد ناسيًا أني نسيت الكلام منذ زمن بعيد.

تناولنا العشاء في أحد المطاعم وشربنا الشاي بأحد المقاهي، وهمست صديقة في أذني «معايا تليفون مديحة الخاص»، لم يكن هناك ما يثيرني، بل أومأت بسخرية «وأنا مالي». أصبح الحديث ندوة عني، قالوا إني أحبها، وقلت إنها مجرد وجه جميل استخدمته، وفي النهاية أوصلوني إلى شقتي، وفروا مندحين في ردهات المدينة، وضعت أوراقي، وجلست ككومة من الحزن الأليم، فوقعت عيني على رقم الهاتف «هاتف مديحة الخاص» وجدتني أمزق الورقة، ووجدت قدمي تهرش الشارع مهرولة، بينما يدي تضغط الأرقام بسرعة من يطلب النجدة من العالم الآخر...

- أيوه أنا مديحة.
- عايز أشوفك....
- أنت خدتني على خوانه.
- عايز أشوفك...
- يبقى نتجوز.
- إزاي؟!
- تعالى اخطبني، سلام.

16

قال الآباء إن الرحلة كانت شاقة من الأشمونين إلى هنا، سنوات طويلة من التخطيط والعمل السري، سنوات من الصمت؛ فلا بد أن تشيد مدينة الرب دون أن يعلم أحد، هذا المركز الجديد لا بد ألا يعلم عنه الآمونيون الذين ينتشرون في الجنوب كالريح في الصحراء، لا شيء يعيقهم، وأعوانهم كالرمل، عيونهم كذرات الغبار، سنوات وملكهم يزداد ولا ينقص، فرعونهم قوي، نجمه في صعود، نجم مكتوب له البقاء والخلود، يا له من حظ طيب، نجم لن يُنسى اسمه مهما طالت الحياة.

حين أتى الكهنة المقدسون يبحثون عن الأرض التي رسمت خرائطها بدقة متناهية، وجدوا أرضًا يعمها الماء ولا يظهر منها سوى عشرات الأفدنة، وبينها وبين اليابسة مسيرة ساعات، أرض تحيطها الحلفاء والبردي كأنها محمية خطها الرب لمعبده، ربوة مرتفعة تشبه البيضة على سطح الماء، تسكنها آلاف الطيور، وتسكنها الثعابين والتماسيح والأشجار الباسقة، يا لها من سنوات من العمل الشاق.

في البدء كان المعبد من طوب لبن، وطمي أحمر، وأعواد الكافور والحلفاء، سنوات من العمل لجذب المريدين والأتباع، سنوات من الهروب والتخفي؛ حتى أصبح للإله أتباع وطقوس تقام كل مساء، هنا صدر الأمر المقدس من الجنوب بإحضار الحجارة من تل القلزم، وجاء النحاتون والبناءون وشيدوا معبدًا على ثلثي الجزيرة، معبدًا يشبه المعبد القديم، بل هو نفسه، وكأن كهنة السحر قد نقلوه في إحدى الأمسيات الجميلة. سنوات والأتباع يزدادون، طقوس المعبد تقام كما أرادها «أشمون» منذ الأزل، فماذا إذًا؟ لا شيء سوى ما يعانيه هؤلاء المريدون حين يفيض النهر، حين يغضب «حابي» ويأتي مزمجرًا، لا المعبد يتسع لهم، ولا الذين يرحلون حتى المثلث يمكنهم تأدية الطقوس، هل نتركهم هكذا؟ هل يترك الرب أتباعه للموت والضلال؟ بهذه الأسئلة... تحدث الثالوث المقدس ذات مساء، وبهذه الأسئلة أرسل الكاهن الأكبر إلى المقدسين في الجنوب، شهور مضت ولم يجب أحد، شهور ظن فيها القابعون هنا أنهم نُسوا، لكن المشاورات والمجاذبات كانت تطحن الأشمونين في الجنوب، هل يعود الأتباع والكهنة ويتركون أشمون الجديدة لنستمر في حروبنا ضد الأمونيين؟! وما الذي يمكن أن نفعله حتى تبقى بيضة الإله في الشمال؟ وما الذي يمكن أن نقدمه لآلاف المريدين الذين يثقون في الرب ومشيئته؟ لو لم نمدهم بالرعاية لانصرفوا عنا وعادوا إلى دينهم القديم، هنا تفتق ذهن أحد الكهنة الصغار محبي العلم، كان يدرس الأماكن ويحفظ الخرائط عن ظهر قلب، فتساءل ذات مساء، ماذا لو بنينا سدًّا نوزع به الماء عن مدينة الرب؟ وماذا لو بنينا سورًا حول ما نريده من أرض تتبعها؟ سرى السؤال مسرى النار في الهشيم حتى ألقى به أحد الثالوث المقدس في مجلسهم، ودار النقاش كرحى تطحن الرءوس، ولم يخلق الصمت سوى دخول الكاهن الأعظم، لا أحد يعرف كيف علم؟ لكنهم كانوا موقنين تمامًا أنه جاء من أجل ذلك.

الصمت هو الإله المتوج على القبور، وأينما حل أحال الملكوت قبرًا عظيمًا، فكان الكهنة موتى يقفون على أقدام، لا أحد يجرؤ على التحرك ليعين الكاهن العجوز سوى خدمه المقدسين، ليس من التقاليد أن يطرف واحد منهم في لحظة انتباه الخشوع المقدس، دقائق مرت حتى جلس الكاهن الأعظم، دقائق حتى عدل من جلسته، ووضع مفتاح الحياة على وجوههم، لحظة واحدة كان للخدم المقدسين أن يقطعوا

فيها أواصر هذا الصمت ليخرجوا، ويغلقوا الأبواب خلفهم، ثم يعود الملك المتوج سيد الأشياء في الغرفة، مربع الأشمونين اكتمل، وسيد المربع أومأ بطرفة عين بالجلوس، الآباء المقدسون لا يميزهم عن كراسيهم سوى الهواء الذي يدخل الصدور. «بسم أشمون، أبانا الذي في الأعالي، سيد الأكوان والملكوت، وصاحب الأنفاس التي تتردد فتبعث في الكائنات الحياة» هكذا بدأ الكاهن الأعظم، وهكذا انبلج الترتيل ليقطع الصمت في الملكوت، سمعهم جميعًا وأنصت كقط عجوز رابض في فيناء بيت قديم، سمعهم حتى انتهى الكلام من صدورهم، وانتظرت الأذهان كلمة الرب، دقائق كأنها الساعات، لا عين تطرف ولا فم يهمس، حتى الأنفاس كادت أن تتوقف، آذانهم من الانتباه كادت تخرق السقف، وقلوبهم لو مرت عليها دقيقة أخرى لصارت كالجبال حين تتصدع، «في الصباح يأتيني الكاهن الشاب»، مفتاح الحياة هو الوحيد الذي كبل الصمت فرفع الاجتماع، يمكنهم أن يعاونوه الآن، أن يفتحوا الباب وينادوا الخدم، يمكنهم أن يتنفسوا دون أن يخشوا احتكاك الهواء بصدورهم.

في الصباح كان الكاهن الشاب «سيلاس نخت» يقف في قدس الأقداس، لا يعرف ما الذي أتى به لهذا المكان الذي لا يدخله سوى الفرعون والكاهن الأعظم، يا للبرد الذي ينبع من كل شيء، يا للوحدة التي تمر بلا نهاية، ويا للصمت الذي يغلف كل شيء، دقائق منذ تركه الكهنة المقدسون كأنهم كانوا طيفًا ثم ولى، دقائق ليست بالدقائق لكنها دهور، هل يخرج، هل يصرخ، أم يموت خوفًا وصمتًا، هكذا مثلما يموت كل شيء هنا؟ لكنه لا يعرف طريق الأبواب، بؤرة وحيدة من الشمس تأتي، بؤرة تضيء المكان كأنه الظهيرة، صرخات صقر عجوز تقطع الملكوت كل حين، أين هو؟ من أين أتى؟! لا شيء... فقط بعض الحركة الخفيفة التي تكشفت عن عجوز في التسعين، بيده مفتاح الحياة وعود من الكازوارين يتكئ عليه «تعال يا بني، اقترب، لا تخف، أنت في حضرة «دجحوتي» الآن، في حضرة رب الأرباب أشمون»..... لا أحد يعرف ما الذي دار في هذا اللقاء، ولا أين ذهب «سيلاس»؛ لكنهم بعد عام- عام كامل عقدت فيه الهدنة مع الأمونيين- شاهدوا تل القلزم على رأس المثلث في الشمال، آلاف الجنود والبنائين، آلاف العمال والأتباع من كل فج يأتون، أشمون القديمة تأتي إلى أشمون الجديدة، الجنوب يأتي إلى الشمال، وكأن الأرض جريدة تطوى في المساء. كان حابي مستكينًا، ويكاد يكون غير موجود، ولم يمر «كيهيك» حتى كان الجدار العظيم يفصل بين ذراعي المثلث، وضلعاه عميقان متسعان، عمل جاد صامت، ليل كالنهار ونهار كالليل، مئات الموتى وآلاف الأحياء.

حين أتى حابي في نهاية الربيع كان الضلعان يزدانان بالماء، وكان الأتباع والمريدون يوسعون له المجرى خلف أشمون، وثمة نهر صغير يأتي إليها وحدها، نهر يتسرب من أسفل سور عملاق شيدوه، فكانت أشمون محمية لا يقربها الأمونيون المشغولون بحروبهم العديدة في شتى الجهات، بوابات عملاقة تفتح على الماء، عشرون بوابة تتوسطها أبواب لدخول المريدين وخروجهم إذا كان حابي نشطًا، تفتح البوابات كلها إذا كان ضعيفًا أو غير موجود، رغم أن الماء بعد بناء السد بين ذراعي المثلث لم يعد موجودًا حول أشمون، لكن «سيلاس» الذكي كان يقيم حسابًا لكل شيء، ولا يهمل قلامة ظفر تقع منه، ليته أكمل من العمر ما كان يتمنى، لكن الأذكياء يموتون بأسرع مما نتوقع، فلم يمر على بناء السور سوى عام واحد حتى رحل الجميع من حيث لا يدري أحد، رحلوا من حيث أتوا وتركوا مدينة الرب جوهرة فوق هذا المحيط الأزلي من الظلام والسكون، لا شيء يقطعه سوى أنفاس المزارعين وحيواناتهم، لا شيء يجوبه سوى «أشمون» وحراسه الليليين، لم يبق سوى «سيلاس» أول الموتى في معبد أشمون، سيلاس أحد الثالوث المعظم في كهنة أشمون الجديدة، سيلاس الذي مات بالحمى بعد عام من رحيلهم، حين مات وقف المعبد أربعين يومًا يردد التراتيل لروحه الطاهرة، وبعث بجثمانه المعظم ليحنط ويدفن في غرب أشمون القديمة، هذه كانت رغبة الكاهن الأعظم هناك، كم بكى ورتل الأناشيد من

أجله، كم حمل الفرعون ليصلي من أجله كل يوم، أربعون يومًا والتراتيل والأناشيد تقام على جسد سيلاس وكأن أوزيريس يعاد دفنه من جديد.

17

يبدو أنني كنت أفضّل أمي عن أبي، هذه حقيقة، فهي الأقرب إلى المدينة السفلية، وهي المسكونة بهؤلاء الكهنة أكثر منه، ربما يأتي التقارب من هنا وربما أيضًا من ملازمتي الطويلة للبيت، فطفل لا يكاد يخرج من مرض حتى يدخل في مرض لا مكان له سوى البيت، حيث الأم التي تهدئ من روعه بالفاتحة والتعاويذ، أما «السيد يونس أبو النور»- والدي- فلم يكن موجودًا سوى بالليل، وأحيانًا كثيرة لا أراه، هو دائمًا منشغل بتجارة الماعز، هذه التجارة التي لا تعود عليه بأكثر من التبغ الذي يحتاجه كل يوم، فتجارة الماعز لا تزيد عن إدمان التدخين. حين نراه يستعد للخروج- قبل أن تفتح الديكة أفواهها- نظنه سيعود في الظهيرة محملًا بالبلد التي ذهب إليها، ولكن من يراه مع رفاقه في المهنة- وهم مختلفون حول عنزة- يود لو أعطى كلاًّ منهم خمسين قرشًا حتى يعود إلى أهله سالمًا غانمًا.

مرة ذهبت معه، ركبنا والظلمة يمكن القبض عليها بأنامل اليد، كانت رحلتنا إلى إحدى القرى المجاورة، في مدخلها وجدنا أربعة من الرفاق تكاملوا حتى بلغوا العشرة أو الاثني عشر، وقفوا جميعًا في انتظار عابر يحمل عنزة، هذا تخصصهم. ومع ظهور أول شبح يحمل عنزة أو يجرها خلفه حتى تحلقوا جميعًا حوله وبدءوا في التفتيش الذاتي للعنزة، عشرة أو عشرين يدًا تجس وتقلب فيها، يا للمسكينة! أصبحت كالخرقة من كثرة التقليب، حين بدءوا الشراء بدءوا من ربع الثمن، وبدأ صاحبها الذي كان رابط الجأش في أول الأمر يجأر في الشارع، يسب ويلعن اليوم الذي اشتراها فيه، أخذوا يقنعونه أن السوق رديء و»نزل الأرض» وليس كما كان حين اشترى، شعرت أن الرجل من كثرة الجدال والمناهدة، والفصال الطويل الذي لا يزيد سوى بربع الجنيه؛ قرر أن يلقي بالعنزة في أقرب مصرف، حتى يستريح، ويعوض الله عليه، ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، فنصف الثمن خير من عنزة ميتة وامرأة تصرخ في الدار. بعد أن حصل هؤلاء العصبة على عنزة المسكين، بدءوا يبيعون أنصبتهم بطريقة المزاد، وهنا بدأ الجهد الحقيقي، فالمجهود الذي بذلوه في شراء العنزة لا يزيد عن عشر المجهود المبذول في المزاد الذي يقف السوق كله كي يرى على من سيرسي في النهاية. في البدء أعلن أحدهم أنه سيشتري أنصبة الآخرين بقرشين لكل منهم، فزاد آخر قرشًا ثم تلاه قرش ونصف، ثم ثلاث تعريفات ثم... ثم... ثم. حتى إذا أكلت الشمس الرءوس، باع الجميع لأحدهم العنزة التي قد تنفق منه قبل أن يصل إلى البيت. «البيعة» الواحدة قد تستغرق أربع أو خمس ساعات، وتستهلك مجهودًا يكفي لبناء برج كبرج القاهرة، ويا للمأساة فنصيب أبي لا يتعدى أكثر من عشرة قروش، ينفق منها ثلاثة في الذهاب والإياب، ويشتري شاياص وتبغًا بالباقي، وربما يظن المشاهد العابر أن الذي يشتري العنزة هو الرابح الوحيد. ورغم أن هذا نظريًّا صحيح، غير أن التجارب التي ناضل فيها السيد يونس أبو النور من أجل الحصول على هذا الشرف أثبتت العكس، فمن ناحية إما أن يكون الفلاح كاذبًا ومجرد حيلة مسرحية إن أجادها خدع بها هؤلاء الرفاق واشتروا العنزة بما يقارب ثمنها الحقيقي، أو ربما يترك لهم هامش ربح قليل، ومن جهة أخرى فكثرة التقليب والرفع والرمي لا تترك العنزة تنجو بخير، كما أن أغلب هؤلاء الرفاق خبثاء ولا يعرفون الصحبة. فقط يعرفون الأماكن الحساسة ويطلقون أيديهم فيها «فتطرح» العنزة، أو

يموت جنينها بالداخل، أو آلاف الأشياء التي تجعل من اشترى وفاز هو الخاسر الوحيد ونادب حظه طوال العام.

إنها تجارة الماعز التي لا يمارسها سوى أقل الناس في الأسواق شأنًا، ليس لأنهم مهانين ولكن لأن فقرهم «دكر»، هكذا كان يصفهم أبي الذي تعلم بالخبرة أن يقف ليبيع عنزة لتاجر، أو لامرأة لا رجل لها. لكن تجارة الماعز في عمومها لا تبقي ولا تذر، وتأتي على الأخضر واليابس، فلو ربح أحدهم طيلة العام ونفقت منه عنزة واحدة ما عوض خسارته، لكنها أيضًا كالتدخين «شربه كيف، وإدمانه سم»، هكذا قال السيد يونس أبو النور في إحدى الأمسيات على سطح بيتنا وتحت ظلال قمر بؤونة.

كان يعرف أن ما يفعله حرام، لكن ما إن عرضت عنزة في الصين إلا وذهب للفصال فيها، يقسم آلاف الأيمان ويقرأ مئات الفواتح، وإذا ربح مرتين وضع طاقيته على جبهته وأخذ يدخن التبغ زاعمًا أنه أبو زيد في زمانه، ورغم أنه يدرك تمامًا أن ما ربحه لا يزيد عن نصيب أتفه تاجر بقر في بقرة ماتت وباعها للجزارين، لكنه الفقر والبحث ولو عن انتصار زائف.

«بهية الصاوي» كانت على النقيض من ذلك، تصلي كثيرًا، ويحضرها الأسياد مرة في العام، فتقع في باحة الدار، باركة كالجمل، مزبدة في التراب ساعات طويلة، حتى تفيق فتنذر للسيد البدوي، وتدق الزار وتقيم ليلة لأهل الله، ولا تضع يدها في شيء إلا وأصبح نهرًا جاريًا، تحضر الشاي بالكيلو وتلفه قراطيس وتبيعه للجيران، تذهب إلى شتى الحقول والبيوت لتحمل القمح والذرة، فيعطيها التاجر عرقها ويأخذه منها، كانت دارنا أشبه بالسويقة، فيها الخير وفير، وفيها السمن والجبن والشاي والدقيق وأمة من البشر يملؤها العشم والحب، لذا كانت بهية موجودة دائمًا، سلطانها نافذ، وقرارها صائب، ونصائحها أمر إلهي تؤنبنا الضمائر إذا خرجنا عليه.

لم يكن لهذا علاقة بالمهارة والشطارة، فكثيرات دخلن هذا المضمار وانتهين قبل أن يبدأن، فهذه سقط عليها جوال دقيق قتلها، وتلك ذهبت إلى السوق وضاع رأسمالها، وأخرى حلفت خطأ وزورًا فسرى اليمين في جسدها، الأمر فقط مرتبط بهؤلاء الذين كانت تراهم في منامها، كانت تقول على كبيرهم قطب الرجال، وكثيرًا ما قالت قطب الرجال قال اعملي كذا.. وكذا... قطب الرجال لكزني وقال اخرجي، قطب الرجال

...آه.. آه... لا أستطيع استكمال الكتابة.

18

مـــاعـــت تـحـــبـــك،
ودجـــحـــوتـــي يـــرعـــاك،
فـــســـر عـــلـــى بـــركـــة أشـــمـــون

مسكين «حور» كم عانى من معرفته؟ هكذا قال الطبيب وهو يغرز في جسدي حقنة المهدئ، أكاد أقول إنني أدمنت المخدر، فمنذ أسابيع وأنا تنتابني حالات عصبية حادة، توقفت أثناءها عن الكتابة، فلا رغبة لي في أن أمس شيئًا، هو الاكتئاب المميت، لكنني ما زلت أحمل بداخلي العديد من الأشياء التي تدفعني للتخلص منها، فها هي أشمون بصورها القديمة والجديدة تهاجمني، ها هم الأصدقاء ينسحبون من حولي في المدرج بينما أنامل الاتهام ترسم حول هاماتهم دلالات كثيرة أقلها أنني لست طبيعيًّا، أكثر ما أكرهه أن أرى العطف في عين البشر، عطف نابع من كونك مريضًا وهم يتفضلون عليك بفائض قوتهم فيرسمون هالات الدهشة وكأنهم يصدقونك، لكن البريق الذي ينبع من العيون يقول هي الشفقة فحسب، ربما كان هذا سبب ثورتي على «مديحة»، لا يمكنني أن أحتمل العطف أكثر من خمس سنوات، فلو كنت أحكي لحجر لصدقني وآمن بما أقول، حاولت أن أقنع نفسي أنها يومًا ما ستصدق، يومًا ما ستدرك أنني لا أهذي، وأنني إنسان شاءت اللعنة أن يعرف ما لا يعرفه الآخرون، أن يقرأ صفحات من التاريخ لا يمكن لأي من المهتمين به أن يقرأها، وسوف يقوم بآلاف الحسابات والتخمينات حتى يعرف نصف ما أعرف، لكن يبدو أن الناس اعتادت على المعرفة الناقصة، المعرفة التي يكملونها بأنفسهم، فالماضي هو هذه الأسطورة التي نخترعها وليس ما كان بالفعل، وربما يأتي آخرون تفصلنا عنهم آلاف السنين فيقومون بالحسابات والإحصاءات حتى يتوصلوا إلى نصف ما نعيشه الآن، ولو أن أحدًا منهم قدر له أن يعيش معنا ويخرج عليهم بما نقوله وما نفعله وما نخافه أو نتمناه لاتهموه بالجنون، نعم سيتهمونه بالجنون لأنها اللعنة، لعنة الزمن والحديث عما طواه الصمت والنسيان.

كم أنا خائف على هذا الطبيب، ما زال شابًّا لم يتزوج، نابغ في عمله ومحبوب من الجميع، مسالم إلى أقصى مدى ولا يتحدث كثيرًا، لكنه يريد أن يعرف كل شيء، يأكله حب الفضول- ليعرف- مثلما أكلني ذات مساء. هل تراه منذورًا لهذه اللعنة، ربما رغم أن الفارق بيننا كبير، فلم يكن لديه بيت قديم فيه بئر لها غطاء، حين ذهبت أمه إلى السوق ذهب ليلعب بجواره ولسبب ما رفع الغطاء، ووجده يرتفع معه، رغم أنه استعصى على عشرة من رجال «الدرب»، نزل يعد الدرجات أربعين درجة في الظلام المتراكم منذ آلاف السنين، وجد ممرًّا مرق فيه مسرعًا، فرأى على البعد نورًا، قبل أن يصل إليه ظهر خمسة من الكهنة، قال كبيرهم: ارجع.

ليتني رجعت، وليتني حين تماثلت للشفاء لم أعد من جديد، ولم أحصِ الدرجات، ولم أذهب إلى المحكمة، ولم أقف بثبات الذاهب إلى الموت موقنًا أنه لا محيص عنه، حين سألني كبيرهم «لماذا أتيت؟» قلت: لا أدري، «هل مسموح لك بالرؤية؟».. لا أعرف لكنني أود أن أرى. هناك أشار بمفتاح الحياة إلى معاونيه وقال «زنوا قلبه». في سرعة البرق كنت طريحًا أمامهم، وأيديهم تعبث في صدري، أخرجوا قطعة من لحم ترتعش، وضعوها على ميزان حساس أمام ريشة قالوا فيما بعد «ماعت تحبك، ودجحوتي يرعاك، فسر على بركة أشمون». حين أغلقوا الصدر كما كان، وضعوا الريشة عليه وقالوا: «إذا أردت الدخول فاكشف لنا عن صدرك وتمتم باسم أشمون ثلاثًا، سوف تأتينا أو نجيؤك نحن، لكن اذهب الآن ونحن في انتظار عودتك، نحن خدم معرفتك، فمقدر لك أن تعرف ما لا يعرفه غيرك، وأن تطأ أرضًا وأقداسًا حُرمت على الكثيرين».

أخاف على هذا الطبيب لأنه طيب القلب، رحيم وذكي، ومن فرط اهتمامه بي؛ أشك أنه واحد منهم وقد جاء ليصطحبني في رحلتي الأخيرة من الشرق المضيء إلى الغرب الجميل، حيث الهدوء والصمت، وحيث الخلود والتفاني في صحبة الإله العظيم.

19

عدد كبير من البشر ما زال يشك في كون الديانات سماوية أم لا، فكل ديانة تحمل من القدسية والغيبيات ما يجعل المؤمنين بها ينزهونها عن أن تكون اختراعًا بشريًّا، حتى الديانات التي نكاد أن نكون موقنين أنها ليست سماوية. فبعض الدلائل تربط هذه الديانات بروابط مشتركة، جزء منها يجعلها سماويًّا وأخر يجعلها أرضيًّا، أما السماوي فيرتكز على وجود خالق خلق نفسه بنفسه، ولم يكن معه أو قبله شيء، ثم فكر فتصور الوجود، ثم تكلم فخرج هذا الوجود إلى الحقيقة، هكذا تحدث الفراعنة عن بدء الخلق، وهكذا قالت اليهودية والمسيحية والإسلام، وهكذا قال زرادشت ،وبوذا، وكونفيشيوس. وربما لو درسنا الديانات الأفروهندية لتوصلنا إلى هذا أيضًا، فجميعها تحدثت عن الثواب والحياة وما بعد الموت، ولم تقل ديانة واحدة أن الحياة سوف تنتهي إلى ما نحن فيه فقط، فجميعهم قال بوجود حياة أخرى يُعوض فيها المظلومون، هذا الشق الغيبي لا يمكن أن نضعه تحت المجهر لنتأكد من صحته، كل ما نفعله هو الإيمان به هكذا، مطلقًا غيبيًّا، وإذا كان لنا أن نفكر فليس لنا سوى الجانب الأرضي، وهو عمران الأرض، فالديانات أجمع جاءت بنصوص مختلفة حسب الزمان والمكان، وربما يتناسب حسب المستوى العقلي لهذه الزمكانية، وربما بما يمكنها أن تقدم من رؤى يرى مريدوها أنها الحل الأمثل لإقامة العمران على الأرض، عمران يقترب من المثالية، وليس فيه ظالم أو مظلوم، وإن حدث فالله سيعوض المظلومين ويحاسب الظالمين على ظلمهم، هكذا ربما تكون الديانات جميعًا واحدة بصيغ مختلفة، لم تختلف في شيء سوى المظهر الذي تؤدى به الطقوس، وإن كان الجوهر والمغزى واحدًا، هذا الاختلاف يتشكل في مكان العبادة وطرقها والزي الذي يصاحبها. يا لها من اختلافات تافهة، لا تتناسب مع قدر الدماء التي تراق بسببها.

أذكر أن صديقًا قال لي- ذات مساء كنا نستمتع فيه بهواء النيل وصخب الأضواء التي تتراقص على صفحته حينما حدثته عن الفراعنة وديانتهم، وكيف انزوت عنها الأضواء واندثرت بعدما اتحدت أكبر ديانتين لدى الفراعنة في ديانة واحدة هي عبادة «آمون رع»؛ فماتت ديانات كثيرة وارتضت آلهة كانت ذات وقت صاحبة مريدين بالآلاف أن تمارس دورًا ضئيلًا داخل منظومة هذه الديانة الجديدة، ساعتها فكر طويلًا ثم قال: لا بد أن كل حضارة كبيرة أتت على حضارات كثيرة كان يمكنها أن تمارس دورًا كبيرًا، لو لم يوقعها سوء الحظ بجوار هذه الحضارة، ولا بد أن الحضارات التي جاءت فيما بعد على أرض هذه الحضارة- وإن بدت مخالفة أو معادية لها- تأثرت بها، بل أخذت من معالمها ونسبت إلى نفسها أو طورته بما يقنع مريديها أنها مخالفة معادية، هكذا الديانات أيضًا.

ساعتها كنت منشغلًا «بحابي» العملاق الذي يربط نصف القارة المظلمة بنصفها المضيء، والذي لولاه ما كان هذا الجزء سيضيء مطلقًا. تذكرت ما قاله «حور محب» عن أشمون الذي سيرتدي آلاف الوجوه والأسماء، لكنه سيظل الوحيد الباقي مثلما كان في المبتدأ، تذكرت حدثيه عن أن نهاية الأشمونين ستكون بانهيار سد «سيلاس» وغمر الطمي أراضيهم ومبانيهم ومعبدهم العظيم، حين قال إن رحيلهم وشتاتهم في هذه البلاد سيبدأ، وأن ذكرى أشمون ستخمد تمامًا حين يرفض كهنته المقدسون الدخول في

تفاوض من أجل الحصول على دور ولو ضئيل داخل المنظومة الجديدة.

تذكرت أيضًا كم أكلت الديانات المصرية من ديانات، وكم كتب على حضارات مجاورة ألا تظهر أو يذكرها التاريخ، ولولا حضورها القوي لكان لهذه الحضارات شأن آخر. تذكرت حديثه عن نهاية الفراعنة على أيدي الدخلاء ومجيء أصحاب النور والظلمة إلى أراضيهم، ثم أصحاب الأنوف المدببة، ثم البيض ذوي القلنسوات التي تشبه أعراف الديكة، وأظنهم الرومان، لأنه قال سيأتون من الشمال، أبناء عمومة لهم سيهزمونهم على أرضنا ويجلسون مكانهم، لا أعلم لما كان حور تشاؤميًّا إلى هذا الحد، خصص عشرين بردية للحديث عن الفراعنة المقهورين بعد زوال ملكهم، معلنًا أنهم سيظلون عصورًا طويلة محكومين من كل أجناس الأرض، لكنه في النهاية قال: حين يطير الحديد ويتحدث ويخرج الناس منه على بعضهم بعضًا، ستكون دورة الفلك قد دارت دورتها، وصعد المريخ إلى بروجه ثانية، سيتولى الفراعنة حكم أنفسهم، لكنهم سيمكثون زمنًا طويلًا حتى يعتلي المريخ أعلى بروجه، ويصيرون أمة كأسلافهم».

ما أريد قوله الآن أن «حور» مثلما رصد التطور السياسي رصد تطور «أشمون»، وأشار إلى عدد من أسمائه، ليس بالتحديد ولكن بالرمز، وقال: إن الديانات التي ستأتي على أنقاض الفراعنة في هذه المنطقة ستأتي من جوف دياناتهم، ولو استطاع الناس أن يدققوا قليلًا؛ لأدركوا أنها محض تطور أو تغير في الشكل وليس الجوهر.

فتارة يختصر التاسوع إلى ثالوث، وتارة يكون أشمون وحده ويتحدث الكهنة باسمه على الأرض، وكان متشائمًا ليس من هذا النوع في الديانة ولكن من أنصارها، فنجمهم على حد قوله سيعلو ويعلو، حتى يستوطنوا أرض «حابي»، ويندمجوا مع أهله ويصبحوا جزءًا منه، ويرتبط اسمه باسمهم، هؤلاء الذين سيمحون ذكرنا، ليس بحروبهم ولكن بدياناتهم التي هي جزء من ميراثنا، ولغتهم التي لا أصل لها في لغتنا. سوف يأكل حابي كل الذين سيمرون عليه كأنهم عابرو سبل، لكن هؤلاء نجومهم ستختلط بنجوم أبنائه، فلا أكاد أفرق الآن بعضهم عن بعض.

أما الديانة الثانية التي ستتحدث باسم أشمون وحده، فهي أولى الديانات التي ستخرج من هنا، بالقرب من معبد الجنوب، حيث الغرب، وهذا فأل سيئ في ذاته؛ فلا شيء يأتي من الغرب يطيب له القلب، كما أن نجمهم سيخرج من الشرق حيث أرض اليبوسيين، وهذا الأسوأ؛ فلا يخرج من الغرب إلى الشرق سوى الموت، سيبنون ملكًا ما يلبث أن ينتهي إلى الشتات، وهناك حين يبدأ المريخ في اعتلاء برجه، ويعتلي الناس ظهره؛ سوف يعودون. لكن نجمهم مثلما انطفأ من قبل سينطفئ، لكنني لا أستطيع أن أحدد أي النجوم سيبتلعهم، فيبدو أن معرفتي لن تتخطى زمن الذي يشبهني، ويلتقي نجمه بنجمي، كم أنا مشفق عليه، لكنها النجوم تقول ما لا نستطيع أن نخرج عنه.

20

آن... أين أنت يا آن؟ آلاف الأعوام وأنا أنتظر، آلاف الأعوام ولا تأتين إليَّ، ولا هم يسمحون لي بالخروج، كدت أوقن أنني سأموت ولن أرى طيفك مرة واحدة. طيفك الذي لا يفارقني وأبحث عنه دائمًا، كلما رأيت وردة سميتها «آن»، وكلما لقيت نحاتًا سألته أن يصنع لك تمثالًا، فإذا قال لي صفها؛ عجزت عن الكلام، وحدها الأيدي تستطيع أن تصف ما نحلم به، ووحدهم الفلاحون في الحقول يستطيعون أن يصنعوا الجنة التي يحلمون بها، وحدهم النحاتون يستطيعون أن يرسموا صور حبيباتهم. ليتني كنت واحدًا منهم؛ لأصنع لك تمثالًا أجلس بجانبه طوال الحياة.

21

في المرة الأولى التي أتت فيها مديحة إلى بيتي، كانت ممتعضة، ورأيت في عينيها أنها شعرت بالمهانة، فكيف تدخل سيدة مثلها بيتًا بهذا التواضع، فشقتي لا تزيد عن حجرة وصالة في بيت صغير يقع كفاصل بين شارعين، أظن أن صاحبه غافل الناس ليلًا وبناه، ولها أن تمتعض، فلا أثر لرائحة عز يمكن أن أذكرها الآن. ظلت لأكثر من ساعة على تأففها من الرطوبة والتراب والطلاء المتساقط، وحين انتهيت من عمل الشاي ابتسمت، مؤكدًا لها أن هذا البيت على عيوبه هو كل ما يحتاجه إنسان مثلي ،وقدمت الشاي ساخرًا «أرجو أن يليق بسمو الأميرة»، بدأت أعضاؤها في الارتخاء، وبدأت العصافير تطير من عينيها، كان البريق يزداد، وشيء ما يجذبني بشدة نحوها، شيء ما يشبه الصمت، ورسائل الطيور، والألفة التي تزداد بين جسدين، شيئ ما خفف من حدة الجمود الذي وقعنا فيه، ومن حدة النظر التي تخيف الآخرين مني عادة، سألتها عن الشاي فقالت لو أكلنا معه هذه ربما سيكون أفضل، كانت الشيكولاتة هي آخر ما أتذكره، فقد وضعت طرفها في فمي، وطرفها الآخر في فمها، وأخذت تطحنها بين شفاهنا، كانت الملابس تتساقط كأوراق الخريف أو تسيل عن الجسد كدمع الشموع، عاريين كالحقيقة لا ريف ولا مدنية، لا أميرة ولا وضيع، لا شيء سوى بهاء الأعضاء حين تتجلى في الصمت، وحده العرق يفوح منذ آلاف السنين، عرق معتق توارثناه داخلنا، ففتحنا قنيناته وتركناه يُضَمِّخُ الوجود، يضمخ لحظة الاكتشاف الأولى، وفتحات الجسد، والتأوه العظيم المتماوج كأنه بحر لا ينتهي، وكأنني ممسوس بآلاف الشياطين التي تخصني وحدي، أو أنني إله عظيم للسحر، قادر على تسخير كل شيء، والعالم في يدي قطعة من العجين أشكلها كما أشاء، مديحة، الشيكولاتة، السراديب، ظمأ السنين، والرجولة التي لم تتبدى لأحد من قبل.

لم أكن معها بقدر ما كنت هناك، حيث «حور محب» مُرابط على صخرته في أعلى قمة للمعبد، ينتظر «آن» لتمسح له بأناملها صفحة السماء، فيعرف ما لا ينبغي لأحد غيره، «ليلك طويل يا آن، ونجومك خافتة، أين تكونين الآن». إنها معي يا حور، آن معي فلا تقلب عينيك، صفحة السماء ليست لك الليلة، صفحة السماء تخصني وحدي، فأنا أرتقيها، وأنا سيدها، أنا «تحوت» سيد المعرفة، وأوزوريس سيد التخصيب.

لم أفق سوى على رهز وتقلص وأنين ووجع مكتوم، حين نزلت كان العرق يتقصد منا، وآثار خدوش على جسدي، وآثار أسنان، يا لهول المفاجأة .. كل ما يخصني كان بداخلها، حين نزلت كانت يدها هي التي تنزلني، تدفعني عنها، لكن عينيها مليئتان بفرح مبهم، فرح يشبه صمتًا بلا طيور، فالطيور لا تعرف الموت، لم تكن بنتًا، هذا ما أدركته، فأين رحيق البكارة وخجلها الذي ينسكب في الليلة الأولى؟..... ! لا شيء سوى المهارة العظيمة وآلاف الأسئلة التي تجوب الذهن، لم أسألها، لكنني شعرت بعار من يفاجأ بأنه مخدوع، ولم تكن فرحة عينيها تجيبني بشيء، كانت تحلق في البعيد حيث عالم ليس في يدي.

«آن» فرحة وتحلق في البعيد يا «حور»، هل كانت فرحة حين استدرجتك؟ اصعد مرصدك يا

سيدي، اصعد وابحث الآن، فـ «آن» ليست معك، آن تحلق في البعيد وتنام معي.

22

بالأمس جاءوا، منذ زمن طويل لم يأتوا، زمن طويل لم أذهب فيه إلى البئر، ولم أستطع السياحة في أشمون، في أول مرة ذهبت فيها إلى المعبد وعرفت مرشدي لم أدر بأي لغة كانوا يحدثونني، ربما كانت الهيروغليفية، ربما كانت الديموطيقية أو السريانية أو أي لغة في العالم لا أعرفها، لكنها كانت لغة معروفة لدي ولديهم، ربما كانت لغة الجوهر، فدون أن أنطق يعرفون ما بداخلي، ودون أن ينطقوا أعرف ما يقولون، ولم أجد تعبًا في قراءة ما على الأعمدة، كنت أقرأ وكأنني أتصفح كتابًا اعتدت قراءته منذ الصغر. كانت أول مرة ينحني لي فيها حامل مفتاح الحياة، رسم على وجهه إشارات مثلثة أو مربعة ثم قال: مرحبًا بابن الإله، قلت: مرحبًا أيها الكاهن، هل يمكنني أن أدخل الآن؟ «بالقطع يا سيدي؛ لكن دعني أخبرك برفاقك في الرحلة، ومرشديك في المعبد، فهؤلاء أعضاء المحكمة السفلية». كان ثمة كاهنان في الأربعين من عمريهما عن يمينه، فقال: «هذان كهنة الحدود الشرقية «هات حب» و«نت بخت» ليس لأحد سلطان عليهما سوى الكاهن الأكبر»، ثم أشار عن يساره حيث ثمة كاهن وكاهنة في خمسينيهما، قال: هذه «إيزيست حور» حاملة المفاتح المقدسة، وصاحبة الأمر المفوض بحراسة المعبد في الشمال، وهذا «أشز أور» حامل ريشة ماعت المقدسة، والمفوض برعاية العدل والسلام على الأرض من قبل- رئيس المحكمة الدنيا- الكاهن الأكبر، قلت: وماذا عن كبيرهم؟ دهش قليلًا ثم قال: «ليس لي أن أتحدث عن نفسي، لكنني فيما يخصك المفوض بالسياحة معك، ومرشدك فيما تريده يا سيدي».

كانت عظامه النحيفة البارزة تنبئ بكثرة الصيام وأداء الطقوس، بينما التجاعيد التي تملأ يديه وأسفل عينيه وبعض الثنايا في وجهه تدل على الكبر، لكن الصوت الحازم والبريق الحاد في العين يوحي بصرامة جعلتني أوقن أنه أحد الثالوث المعظم. قلت: فلنبدأ رحلتنا، قال: «فلتكن على بركة رب الأرباب «أشمون»، صاحب الكلمات الخالقة والأسرار اللامتناهية، اكشف صدرك واظهر خاتمك الذي على قلبك، فلا يتعرض لك الحراس»، حين كشفت عن صدري وأبرزت الريشة المصكوكة على جلدي، تصاعد منها النور فأضاء السرداب حتى المعبد، كنت أمشي وأشعر أن الأرض هي التي تمشي تحت قدمي، حين اقتربنا من المعبد وجدنا قطعة من الرهبة والصمت، كل شيء ينطق بالنور، وكل شيء مشرق كأنه الشمس، سامق وكأنه الإله ذاته. كانت الأعمدة ترتكز على قاعدة سداسية أو ثمانية مستديرة شامخة في الأعلى بتيجان من اللوتس وكأنها بيضة تطفو على المحيط الأزلي، وكأن «أشمون» أطل على العالم من فوق كل هذا الشموخ والتسامق، وكانت عيناي تبتلعان الضوء كأنني أذوب فيه، أو كأنه يتشربني، ضوؤه ضوئي، بلوريته بلوريتي، حرارته نفس حرارتي، أنا جزء من هذا النور، وقطعة من هذه الأعمدة، أمخر بينها وكأنها حرس لي، وكأن موسيقى التراتيل تنطلق من أجلي. من أين يأتي كل هذا الشموخ وهذه الموسيقى، وأين ذهب الرفاق الآن ؟!.... لا أدري.

23

في زمن ما كانت لدي مجموعة من الأفكار التي شكلت معتقدًا قدم لي العديد من الحلول لما ينتابني من مشكلات، لا أستطيع الآن أن أكون كاذبًا مع نفسي وأقول إنني تخلصت منها تمامًا، أو أنها مازالت كما هي لدي، هي أفكار ككل الأفكار التي تنتج في أزمنة وظروف تتطلبها، وبعد أن تمر هذه الأزمنة؛ ربما تهمل وتبقى بلا جدوى كذكرى قديمة نضحك عليها، وربما يحتبسها العقل الباطن في الذاكرة، هذا الصندوق المظلم المحتوي على آلاف الأفكار التي تشبه الوثائق السرية أو شهود العيان على الأزمنة التي مررنا بها، ربما لو علم البعض أفكاري هذه لقتلني، أو على الأقل لأستعدى الآخرين لقتلي، لكنني الآن وأنا مقبل على الموت- ولن أموت مرتين- يمكنني أن أسردها هي الأخرى بشيء من الصدق يتناسب مع هذه الأوراق التي ربما لن يقرأها أحد، أو ربما ستدفن بجانب جثتي مثلما كان يتمنى «حور محب» مع أوراقه.

كانت فكرتي تقوم على المحبة ومعرفة الله بالقلب، فالله كتب على نفسه الرحمة منذ الأزل، وهو غني عن أفعالنا التي أمرنا بها كدليل وشاهد على محبتنا له، فيوم القيامة سوف نسأل عن الصلاة والصيام، لكن الله الرحيم لم يخلقنا حتى يعذبنا فقط، ولو كانت هذه غايته فمن كان سيمنعه أو يحاسبه؟ وما جدوى هذا الخلق، وتلك الملايين من السنين التي مرت؟ ومن ثم فقد خلقنا من أجل مهام أعظم، وهي عمران الأرض، وهذا الذي لن يتم سوى بمحبتنا كبشر لبعضنا بعضًا، وارتباطنا الروحي بالخالق. ولذا فالعذاب سوف يرتكز على مدى نقاء القلوب ومحبتها للخير، فالرحيم العادل يمكنه أن يتنازل عن حقوقه، لكنه لن يتنازل عن حقوق الآخرين، إلا حين يغفرونها، وكأن ريشة ماعت هي المعادل الحقيقي لدخول الجنة، فماعت لا تهتم بالصلوات والتراتيل بقدر ما تهتم بمحبة الخير والاتجاه نحوه، هذه هي الفكرة التي جعلتني أكثر قسوة على نفسي وأكثر عشقًا للبشر، جعلتني لا أنال شيئًا بالقهر، فقط.. بطيب خاطر وسماحة نفس زاهدة.

لا يمكن للأفكار ألا تكون ذات ضرر إذا كانت خاصة، ويمكن لله أن يسامحنا على أخطائنا مادامت تخصنا فقط، ولم ننصب من أنفسنا مرشدين ودعاة، وكأننا امتلكنا الحقيقة، أو تأكدنا من صدقها، لكن إذا حدث العكس فالله وحده يعلم مدى عقابه لنا، أقول ذلك لأنني بالفعل خنت أفكاري وجلست أتحدث عنها بدلًا من وضعها في ملف لا يصل إليه أحد، فقد نسخت منه نسخًا وأعطيته لمديحة، لا أدري لمَ؟ هل كان هذا خبث أم إيمان زائد بالفكرة؟ على أية حال هذا ما حدث، فبعدما ذهبت إلى والدها، كان عليَّ أن أطرد نفسي منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها قدماي أول درجة رخام في السلم الطويل المؤدي إلى الباب الخارجي.

كنت قد وقفت أتوسل إلى البواب وأقنعه أن المسألة ضرورية وخاصة جدًّا، فذهب على مضض ثم عاد ليقودني كمن يؤدي عملًا مرغمًا عليه، فسلمني إلى آخر يرتدي بدلة سوداء وببيونة على قميص ناصع البياض، أدركت أن هذا بمثابة مدير المنزل وليس للبواب أن يتخطى الدرجة الأخيرة من الرخام، فثمة طبقة كاملة يمكن محوها ببساطة الضرب بمنفضة الذباب، منها البواب والبستاني وعمال الحديقة،

أردت أن أنسحب إلى حيث الأماكن التي تتناسب مع رائحتي، لكن الشارع كان على مبعدة آلاف الأميال، بينما البواب ذاب كقطعة ثلج وقعت على الأسفلت في شهر بئونة، ووجدتني أنتظر «كامل بيه»، هكذا بقيت وحيدًا في العالم المكيف من كل جانب، لحظات كأنها العمر كله وأنا أخرج وأعود في مكاني، وما إن رآني كامل بيه حتى تحول وجهه الأبيض المستدير إلى رغيف خرج من الفرن توًّا.

لا أعلم ما الذي أغضبه بالضبط، هل هي ملابسي الرثة، أم أن لديه فكرة مسبقة عن والدي تاجر «المعيز»، لم يقل لي اجلس، ولم ينصت لكلمة واحدة، فقط ابتسم في هدوء وأشعل سيجارًا ضخمًا وقال: بعد إذنك. ذاب هو الآخر ليس كقطعة من الثلج ولكن كإهراق كوب ماء دافئ، جاء بعده مدير المنزل وقام بطردي، لم أكن مستوعبًا لما حدث، ألقى بي «السفرجية» إلى الخارج، وهناك تناوب البستاني وعمال الحديقة المهمة ركلًا وضربًا، حتى إذا ما لملمت نفسي من على الرصيف أمام الفيلا سمعت ضحكاتهم تنسحب إلى الداخل معلنة عن انتصار هائل.

لكن الرحمة لا تفارق قلوب البشر، فقد اقترب البواب مني في هدوء، وهدهد على كتفي، ثم دس في يدي عشرة جنيهات قائلًا «يا بني اطلب من الفقير تهون عليه، وما تطلبش من دول، لأنهم ما يعرفوش ربنا». لم أستطع أن أرد له أمواله، ولا أن أوضح سبب مجيئي، حتى لا أفقد آخر معرفة لي بالرحمة.

العجيب أن مديحة جاءتني في صباح اليوم التالي لتقطع الصمت المملوء برائحة الكهنة، وحور محب، وردهات أشمون، وتقطع التجوال بين أعمدة المعبد، وقراءة المتون، والأناشيد، ومتابعة النجوم، لم تقل شيئًا، لكنه العناق واللهاث، وكأن سجلًا من آلاف السنين ينطوي على نفسه، كأن المجرات تركت مسارها لتذوب في مدار واحد يملؤه العرق والندى والوعود، كنا كجيشين خرجا منهزمين في معركة واحدة، حدثتها عن معتقدي القديم، وأن ريشة ماعت أفضل ما جاءت به الديانات؛ لأنها تحاسب الناس على نياتهم ومدى حبهم للخير.

سألتني لماذا لم أفعل بها كما فعل بي والدها، قلت: لأن الله سيحاسبنا على مدى حبنا للبشر، وديني هو الحب، ولا يمكنني أخذ شيء من صاحبه دون السماح لي به. قالت إنني عظيم. قلت إنها الريشة، قالت تزوجني، قلت: على ديني وديني هو الحب، قالت: ليكن الله كاتبنا، والنجوم شهودنا، وريشتك الميثاق بيننا.

24

إن الله إذا غضب على قوم أسكنهم شبين فإذا زاد سخطه عليهم أسكنهم أشمون.

لا أعلم لماذا كلما مررت على أشمون تذكرت هذه المقولة، ولا أعلم من الذي قالها، فقط كان عابر سبيل، أو أحد المجاذيب الذين يطوفون حول مقام سيدي «مدين» في مولده الذي تعمر به أشمون لمدة أسبوع كامل، قالها وعبر، لكنها ظلت محفورة في ذهني، فأتذكره وأتذكرها كلما مررت بدروبها، ورأيت جدرانها المتآكلة، وذبابها المتراكم.

حين تنزل هذا البلد الموبوء، من أي المداخل شئت، ستواجهك رائحة النتن المتخمر منذ آلاف السنين، ربما يطل عليك من المصارف أو الشوارع أو الجدران أو الأرض ذاتها، وكأنها محمية طبيعية للعطن، ورغم أنها إحدى المراكز الهامة؛ فلا يوجد بها غير شارع واحد مرصوف كفيل بتحويل أي عربة مهما كان نوعها إلى كارو آن عبورها لمرة واحدة منه.

ربما كان أهل هذه المدينة أكثر ذكاء من طرقها، فقد أنتجوا عربات لا يناسبها سوى هذا الطريق المصاب بالجدري في كل سنتيمتر منه، عربات تكمن عبقريتها في أنها لو سارت على طريق جيد لأحالته إلى طريق أشمون. ومن ثم فالمطبات التي تصنعها لن يدري بها أحد، فالراكب لن يشعر بأي من هذه المطبات، لأنه سيكون منشغلًا بتطبيب رأسه أو ذراعه، وربما أماكن هو نفسه لن يكتشفها إلا في المستشفى، ويا له من حظ عاثر، فالحالات الأفضل هي التي يغشى عليها؛ لأنها لن تعرف ما الذي حدث لها.

قيل إن هذه العربات من مخلفات الجيش، وربما نسي صاحب هذه المعلومة أن يقول إنها كانت دبابات الإيطاليين الذين حاربوا عمر المختار، وبعد أن حولها المختار إلى كومة من صفيح، أخفاها الإيطاليون في مكان ما كي لا يعرف العالم فضيحتهم، لكن سائقي أشمون، هذه الأرواح الشريرة التي تجوب العالم ليلًا وفي عز الظهيرة، سطوا عليها، من أين... ومتى؟ لا أحد يعرف! والسؤال الآن إذا كان لا بد للانتقام من المصريين لأنهم ساعدوا عمر المختار في حربه، فلماذا أشمون بالتحديد؟ مع أنها قطعة منعزلة عن العالم، ومازال سكانها يدعون للسلطان عبد الحميد على منابرهم.

من يقذفه الطريق الرئيسي إلى أي من الطرق الجانبية، سيجد أشمون مجموعة من المباني المتهالكة، تركت الأزمنة الغابرة بصمات أرجلها عليها، مجموعة من المباني على سفح هضبة قمتها هي ساحة سيدي «مدين» التي يعلوها مقامه؛ بناء حجري ضخم له مدرج عظيم يؤدي في النهاية إلى حجرة واحدة أمامها ساحة صغيرة بها مصطبتان، فإذا كتب لأي من البشر أن يجلس هناك، فسوف يشعر أنه في جزء من الجنة، وأن نسيمًا باردًا يأتي من النيل مباشرة إليه.

لا أدري لماذا صرخ المجذوب في تلك الليلة بتلك المقولة. ولا أدري كيف تكون الحال في المدينة التي لم أرها مطلقًا وهي شبين، ولم أستطع أن أعرف هل هي شبين الكوم أم شبين القناطر، لكنني أدركت أنه لا توجد بلدة خلقها الله أسوأ من أشمون.

حين أرادت الدولة أن تخفف من وطأة اللعنة بإنشاء صرف صحي، أبت اللعنة أن تزول، فما إن حفروا حتى تحولت الحفر إلى ترع، وما أن سحبوا الماء حتى كادت البيوت أن تنهدم، فأمر مجلس المدينة بوقف الحفر وترك الحال ك على ما هو عليه، فصارت اللعنة لعنتين، وما من مار إلا وقال «يلعن دي بلد». أما المقاول الذي خسر في المشروع ما خسر فقد سمعه الناس يقول «يلعن أبو اليوم اللي شفت فيه البلد دي».

المرة الأولى التي رأيت فيها أشمون كنت في المدرسة الإعدادية، وقررت إدارتها أن نشاهدة فيلمًا تعليميًا، هنالك تحينت الفرصة وغافلت المدرس والأصدقاء وتركت لقدمي العنان في الدروب الجانبية، إنها أشمون التي رأيتها أكثر من مرة في الحلم، أشمون التي ذهبت إليها في السراديب، ومن أجلها طبع على قلبي خاتم الحياة، إنها أشمون فكيف أسبح فيها، فليأت الكهنة الآن، فليأت مرشديَّ، فليأت «حور محب» و«سيلاس» وكل الذين أحضروا أحجارها من الجنوب؛ لا شيء سوى سكارى لا يعلمون إلى أين يذهبون، لا شيء سوى ذباب هائج، قذر متراكم، أقدام تدهس أقدامًا، وحشرات تعلو حشرات، موت يعلو الموت، أسفله موت وبجانبه موت، فكيف يعيش الكاهن الأكبر في مدينة كهذه، كيف يبقى «سيلاس»، «وحور»، و«حت تب»، وآلاف من الكهنة المقدسين، كيف وهذه الجدران تأكلها مياه الصرف، والحوائط مصابة بالكلح والنشع، البيوت لا تزيد عن دورين، الأول أسفل الأرض، والثاني تكاد الأقدام أن تطأ قمته، الشيء الوحيد الذي يوحي أنها مدينة هو وجود السيدات السافرات فيها، لعن الله المدن التي لا تُعرف سوى من سيداتها، هكذا صرخت ساعتها.

لم تكن هذه المرة الأخيرة، فقد وجدتني أتحين الفرص حتى أراها، ربما أرى «حور». حتى أبي نفسه ساعدني على ذلك، فصحبني إلى مولد سيدي «مدين»، وفي الليلة الكبيرة سمعت المجذوب صارخًا: إن الله إذا غضب على قوم أسكنهم شبين، فإذا ازداد غضبه عليهم أسكنهم أشمون. ومن ساعتها وأنا أعشق هذه المدينة التي توارثتها لعنة الرب.

25

صاحب الملك أعلم بملكه، كتب على نفسه الرحمة والعدل، فدعوا القادم يتم عمله.

تكررت زيارتي إلى المعبد بصحبة أصدقائي الكهنة، لكنني لا أعرف أكان هذا بالجسد أم بالروح، فعادة ما كانوا يجيئون إلى غرفتي بعد وفاة أمي، وعادة ما كنت أذهب إليهم فيحدثونني عن تاريخ المعبد وساكنيه، وما كنت أفكر في مكان حتى أجدني هناك، أتأمل ما عليه من رسوم، وما يعلوه من تراتيل. فقط كان عليَّ أن أفك أزرار قميصي، وأكشف عن ريشتي، حينها أكون حيثما أفكر، ويكونون معي حيثما أحتاجهم، هذا الاحتياج الذي شعرت به متزايدًا بعد فقدانها، فحين ترحل أم عن طفل لم يرَ العالم إلا من خلالها فلا بد أنه يشعر بالكثير من الرغبة في المؤانسة، ومن ثم وجدتني في العالم الآخر، حيث السياحة والحكايا عن المريدين والمزارعين والفقراء الذين يلتمسون دخول الجنة، وحيث الكهنة يديرون العالم من الحجرات المظلمة، وحيث الترتيب الكهنوتي المحكم، وكأنه عبادة أخرى في معبد أشمون المقدس.

سياحة دخلت فيها بيوتًا يلفها البرد والصمت على حواف الهضبة المقدسة، بيوت الكهنة التي تتوسطها بارتفاع قليل دائرة المعبد، بيوت من الطمي الواطئ المفتقر إلى التنسبق من الخارج لكنها في داخلها لا تقل روعة عن أي من قاعات الملوك، ولا يمكن أن تعرف من أين تأتيها كل هذه الروعة على قلة أساسها وزخارفها ومقتنياتها، هل هو الهواء الطازج الذي يهب من الشرق حيث الشرفات وفتحات التهوية؟! أم أنه التناسق الشديد للأثاث! وكأن كل قطعة منه قد وضعت بحسابات فلكية تجعلها تعزف سيمفونية ما تأتي من مكان بعيد، أم هو الصمت والهدوء وأصداء التراتيل التي ما زالت تتردد إلى الآن بين الجدران، وكأن أصحابها قد فارقوها لحظة دخولي إليها. كان الضوء منسرحًا على باحة البيت وحجراته طيلة اليوم، والشمس لا تفارقه سواء من الشرق أو الغرب، وبنفس مساحة الضوء، حين تتجه إلى أي من هذه البيوت تراه من على بعد نقطة ضئيلة متكئة على الفراغ، وكأنه كوخ أحد الصيادين أو المزارعين الفقراء، حين تقترب يطالعك باب كبير يشبه أبواب السور المضروب حول الهضبة المقدسة، يتوسطه باب صغير يشبه الباب الذي يتوسط أبواب السور، نقوشه هي نفس النقوش، حتى الأناشيد المكتوبة على العارضة التي تعلو هامة الداخل هي نفس الأناشيد، وكأنك داخل إلى المعبد ذاته، وليس بيت أحد الكهنة، يتلو الباب باحة متسعة تصب بها أبواب الغرف جميعًا، يتلوها جزء مرتفع يزيد عن نصف متر في مساحة مستطيل يمثل ثلث الباحة، وفي حين أن الباحة مكشوفة فإن هذا الجزء مظلل بتعريشة تعلوها أفرع النباتات التي تجلب الظل والخضرة والرائحة الزكية إلى البيت.

الغرفة الشرقية هي غرفة الدرس وملاقاة الأصدقاء، أثاثها قليل لا يزيد عن عدد من كراسي الجريد ومنضدة صغيرة، شباكها يطل ناحية الشمال، على جدرانها العديد من الأدعية بالفلاح والعون من قبل أشمون وتحوت، في مقابلها حجرة تبدو سفلية بعض الشيء، بها سرير مصنوع من الخشب المنجد

بتيل وحلفاء، يتوسطها موقد صغير على الأركان عدد من المشاعل والقناديل، وثمة باب خلفي في البيت حين يدلف منه الزائر يرى ساحة الأرض الخضراء أسفل الهضبة، ولا يكاد ينتبه إلى الفرن المقام على جانب البيت الأيمن، حتى يرى على الجانب الآخر موضعًا صغيرًا يمكنه أن يختفي فيه ليقض حاجته، إنه الكنيف، هكذا قال مرشدي.

ظللت أتجول حتى وصلت إلى بيت من شدة انخفاضه لا يكاد يتضح من الأرض، يحسبه الرائي طللًا لبيت كان لأحد الرعاة فلم يهتم بتجديده، قالت حاملة المفاتيح القدسية: «هذا بيت الخارج حور محب»، قلت فلندلف إليه قليلًا، «غير مسموح» هكذا جاءني صوته الذي خرجت منه الآن وللمرة الأولى وكأنه طاقة من الجحيم، ثم قالت حاملة المفاتيح بصوت يناسب هيئة البيت «يا ولدي... نعرف أنك من أجل هذا جئت، لكن علينا النصيحة لك، فهذا بيت لعن كبير الكهنة صاحبه، ويوم عودة الروح لأصحابها سيكون شاهدًا عليه» قلت وماذا عن ريشة ماعت؟ قالت «حين يأذن أشمون للشهود تكف ماعت عن العمل». لكن أشمون ما كان بحاجة إلى شهود، فقط..... يحاسب الناس على حب قلوبهم للخير، فكيف للكاهن الأكبر أن يعرف هذا؟! وكأن السؤال كان حجرًا وسقط في بئر من الصمت فحرك آلاف الشكوك، وكأن صاحب هذا القبر أو البيت أريد له أن يبعث من جديد، فيرصد النجوم وهي تفصح عن موت الكهنة، وتبدل الفراعين، يبعث ليجادل في اللاهوت وأحكام الكهنة المقدسين، وكأن رائحة الغضب صارت امرأة على قدمين «الكاهن الأعظم رئيس محكمة أشمون السفلية، وعضو محكمة أشمون العلوية، يوم يضع أشمون يديه على الأرض، فهو شاهده والمتحدث باسمه بين الناس في عهده، فكيف لا يكون صاحب الكلمة فيمن عاشوا عصره، شعرت أنني أذوب في بئر من الملح، فلا صوت ولا فكر، لا شيء سوى الموت، يا لهذا الصمت، كيف يدلف بي إلى هذا الذل؟ كيف أستسلم لمرشدي، كيف؟! هكذا صرخت وحين انتبهوا قلت: عظيم الكهنة سمح لي بالدخول، وهو أعلم منا بما يريد، ولو كنت مخطئًا ما كان ليترك قدمي تطأ هذا المكان المقدس، فكيف تمنعونني عنه، وبدا على وجوههم أثر المباغتة، فتلونت بالفحم واللهب، وعقدت الألسن والقلوب ساعة، تمتم على إثرها الرفيق الأكبر للرحلة «صاحب الملك أعلم بملكه، كتب على نفسه الرحمة والعدل، فدعوا القادم يتم عمله، فسبحانه له في ملكه شئون وليس لنا من أمره شيء». ثم اتجه برأسه إلى الشمس التي أكلت رءوسنا وقال «سبحانك تجلت عظمتك واتسع ملكك، نحن بعض عبيدك، نؤمر فنطيع، نؤمر ولا نأمر، لك الملك يا صاحب الملك، ولك الأمر يا صاحبه، ولكهنتك العظام من بعدك، فاغفر لنا خطايانا وسامحنا على جهلنا بك». ساعتها لا أدري كيف فتح الباب الموصد دون أن نفتحه، ووجدتني أهيم في المكان سياحة، ما من مكان إلا والأناشيد والتسابيح تعلوه «مالك الملك، يغير ولا يتغير، يبدل أثوابه ولا يتبدل، يمر في السماء ليشرف برحمته على الملكوت، سيد الأسماء وصاحب الثنايا، لا تحصى عطاياه ولا تفنى، باقٍ ما بقي الوجود، في البدء كان وفي المنتهى يكون، الكل خرج من فمه والكل إليه يعود، كتب على النجوم علمه، وشرح لبعضها بعض الصدور، فمن حظاه حباه تحوت بعض معرفته، أشهدك وأشهد من لا يشهد لك قبل من يشهد لك إني عبدك، مطلع على بعض عملك، راغب في بعض فضلك، فامنحني من لدنك هبة لا تكون لغيري، إنك يا أشمون صاحب الفضل والمنون، صاحب الموكب السماوي منذ البدء وحتى السكون، آمين...آمين».

كنت كلما قرأت أذهل عن نفسي، ولا أعلم متى بدأت ولا إلى أين انتهيت، تلبستني آلاف الشياطين والمردة، فأخذت أحفر أسفل السور المطل أعلى الهضبة، فاصطدمت يدي بـ «دست أو برنية» فأخرجتها فإذا هي مفتوحة يطل منها بعض البردي، فوضعته بين ثيابي وجلدي، لا أعلم كيف خرجت ولا من أين، ولا متى فارقتني الحمى، ولا من الذي وضع الأوراق أسفل مرتبتي، وهل كان أبي هو الذي أحضر الطبيب، أم أنهم الذين جاءوا ليطببوني بأعشابهم. الشيء الوحيد الذي أذكره الآن هو مذاق هذه

الأعشاب، وتراتيل هذه الرحلة.

26

لا أستطيع أن أفكر وأنا أعاني بعض آلام الظهر
فكيف تكتب وأنت تموت؟!

كان السؤال قد أطل من عين الطبيب دون أن ينطق به، فلا يبوح بما يغلفه من حزن على مريضه العنيد، ولا يفصح عما يحتاجه من فرح به، لكن ابتسامته كانت تأتي من أسفل.. حيث التاج والأورطى يحتضنان قلبًا يسع البشر جميعًا، لم أكن أملك سوى أن تنبثق مني ابتسامة لأقول له: «لو أنني توقفت، فبالفعل أنا ميت، وما أخافه حقًّا أن أنتهي من كتابتة ما أريد ولا يأتي الموت، ساعتئذ سأشعر حقًّا أنني مريض يطلب الموت الذي لا يجيء». لم يكن هذا الكلام سيد الحديث بيننا، لكنه الصمت والابتسامة المرتعشة وبعض الألق الخافت في عيني، الغريب حقًّا أن الأشعة التي صدرت مني كانت أكثر ألقًا من تلك التي صدرت منه. بدا لأول مرة حزينًا وربما أضعف مما تصورت، لم يكن هكذا من قبل، فما الذي حدث؟

قبل أن يجيء كانت الممرضة التي ترفل في الأربعينات من عمرها، ترتب ملاءة السرير وبعض الورق المتناثر على المنضدة منذ أسابيع، وأنا أقتات على ضوء الكهرباء المخنوق في مصابيحه دون شعاع واحد أشعر بطزاجته، هذا الصباح رفعت الستائر وفتحت النافذة، وجاءني هواء لم أشعر بطراوته منذ سنين.

انتهيت أمس من دورة التحاليل والأشعة الأسبوعية، أجهزة عديدة لا فرق إن قلت يوضع المرء بها أو توضع عليه، مئات الأنابيب والخراطيم، أجهزة تليفزيونية وحاسبات آلية، لا فرق، أشياء عديدة حين يراها المرء يصاب بالوهن، وربما يشعر أنه ميت لا محالة، لكنني اعتدت ذلك، فلم يعد في الحياة ما أخاف عليه، الأشياء تتم في صمت تام وبرودة هائلة، لا تساؤل ولا إجابة أو نصح، فقط إشارة بسيطة، وطاعة عمياء.

ربما إذا قرأ شخص ما بعد فترة من الزمن هذا الكلام سيتصور أن الفقراء والمعدمين يعالجون هكذا دومًا، بالقطع سيكون مخطئًا، وربما سيعض على أنامله من الندم لأنه لم يحسن التفكير، فالفقراء لا وجود لهم هنا، وربما كان من المقدر لي أن أكون مع غيري من الآلاف الذين يتمنون الموت، بين جدران تأكلها الرطوبة والنشع ولا يموتون. لكنها مديحة التي كانت أقل قسوة عليَّ مني عليها، ففي المرة الأخيرة كانت هادئة، وربما أكثر اتزانًا وجمالًا مما عرفتها عليه، حين فتحت الباب وجدتني ملقى على الكرسي أمام الحامل ولا وجود لريشة واحدة على اللوحة البيضاء، لا شيء سوى الأفكار التي تغلي وتتصاعد في رأسي طيلة الليل، تقدمت ببطء وطبعت قبلة كرفرفة العصفور الصغير على شفتي، تنبهت إلى وجودها، كانت أعضائي مشلولة، ولا رغبة لي في تحريكها، فوضعت ما أحضرت من طعام وويسكي، وغيرت

ملابسها ودخلت الحمام، كنت قد عدت إلى ما كان في رأسي من حمم تتصاعد، لكني بعد قليل وجدتها تدفعني أسفل الماء، لم أكن راغبًا في الاستحمام، لم أكن راغبًا في مباشرة الحياة، لكني لم أستطع الصراخ أو الرفض، فثمة رعشة كانت تزلزلني وكأنني مصاب بالحمى، فبالأمس كان أصدقائي معي يحكون عن «حور» ولمَ ترك حبيبته، كان هذا الجزء يشغلني في حياته، لم ينسها يومًا ولم يكرهها، فلماذا تركها إذًا؟

حين خرجت كانت المنضدة مليئة بالطعام، وكانت يدها لا تضع في فمها بقدر ما تذهب إلى فمي، تناولنا الشاي من «ترمسها» ككل صباح، تناولنا الحديث عن حور وآن، قلت إنني لم أجد في أوراقه سببًا لتركه لها غير ما ذكره عن والده المتسم بالقسوة. حين رآه معها أول مرة نهره وأغلق عليه باب البيت وأمره ألا يخرج منه، لكنه ما كاد يحمل فأسه ويجر أتانه في الصباح حتى تسللت أقدام حور- تاركة الباب مغلقًا كما هو- إلى سطح البيت ومنه إلى الأشجار المجاورة، قاطعًا عدة كيلو مترات حتى يلقاها هناك على ضفة النهر، بجانب بحيرة تنمو عليها نباتات البردي والحلفاء. لم يذكر أكثر من أنها كانت على ديانة آمون، وأن والدها أحد المتصلين بالفرعون، هل كان هذا مكمن الخوف لدى والده، وهل السلطة دائمًا مخيفة إلى هذا الحد؟ لا أعرف. فحور كان إما أن يمر على حياته السابقة على المعبد مرور ضيف خفيف لا يكاد يجلس حتى يرحل، وإما أن يتوقف أمام تفاصيل لا جدوى منها، كوصف البحيرة، وملابس آن، ولون الصباح والألق الذي في عينيها، ورائحة أمه التي ما زالت تنبعث من كل شيء في البيت، تلك الرائحة التي ضمخت حياته، فخرج يبحث عنها في الخلاء، حتى التقت عيناه بآن، فتاة تصنع من الطمي عرائس وخيلًا، تصنع من الطمي بشرًا بلون الألق الذي في عينيها، كان يهيم خلف الرائحة منذ الصباح، يبحث عنها في كل شيء حتى كلت قدماه من المشي. كان الوقت وقت الظهيرة، والصيف صيف أبيب، خلع ملابسه ونزل ليستحم، لكن الماء جرفه إلى عمق البحيرة، فكاد التيار أن يأخذه إلى حيث مجرى النهر المتدفق، لولا تلك الصرخات الحادة التي شقت الفضاء كخط موسيٍّ في الورق، صرخات أنثى لم تكتمل أنوثتها بعد، فترك الرجال في الحقول والمارة في الطريق أشغالهم، وراحوا يقطعون البحيرة ركضًا وسباحة حتى انتشلوه، ما أثار دهشته في ذلك اليوم أنهم تعاملوا معه على أنه شقيقها، وأنها لم تنكر ذلك فاعتاد الذهاب واعتادت المجيء معه حتى حدود قريته، ويبدو أن هذا المكان غير قابل للتغير منذ بدء الخليقة، وحتى يبسط «أشمون» يده على الأرض.

وكعادة البشر للآن، بدأ الحديث ينتشر وأصبح التساؤل مادة للتخفيف من قسوة الشمس المحرقة، كان الخوف يملأ قلوب الجميع، فغير مسموح لـ «الأشمونين» بالصراع هنا، غير مسموح بالتصادم مع الآمونيين، فقد درج الآباء المقدسون على نصحهم: «إذا تنازعت أنت وغيرك على شيء فاتركه له وسوف يهبك الرب أفضل منه». وكانت ملابس آن لا تدل إلا على أنها آمونية من أسرة ترفل في الثراء، بينما ملابسه لا تدل إلا على أنه من أسرة وقعت ميثاقًا أبديًّا مع الفقر.

يا للمأساة! للأماكن طبيعتها التي لا تتغير ولا امتزاج فيها بين متنافرين، سوى في عقول الجدات، حين يهدهدننا بالحواديت، فلا يمكن لابن تاجر الماعز أن يتزوج الأميرة، ولا يمكن لها أن تقنع الأمراء أنه واحد مثلهم؛ بسبب ميراثه العظيم من الفقر.

بدا الحديث غير مقنع ولا محبذ لدى مديحة، فتساءلت وهي تفتح زجاجة الويسكي ضاغطة على حروف الكلام «لماذا تركها حور؟»، وكأنني كنت ظمآنًا لرائحة الكحول الذي بدأ ينتشر في شراييني بنفس العنف، فقلت: «لأنه دخل المعبد».

- لماذا؟

كدت أقول لا أعرف، لكنني تذكرت ما قاله عن دخوله المعبد: كانت يداه المشققتان كقطعة من الصخر تقبض على يدي، وتجرني كبهيمة خلفه، بينما قدماي تسأل الأرض ألا تتركها، وكلما انتقلت خطوة كان رجاؤها يزداد ألف مرة، فكرت أن أصرخ فيه لكن أنامله كانت ما تزال مطبوعة على وجهي منذ رآني معها قبيل غروب الشمس عند الساقية في أول القرية، وكأن شيطانًا تلبسه فنزل عن أتانه، ولطمني على وجهي، دون مراعاة لوجودها معي، في البدء صرخت فيه، لكن عصاه لم ترحمني. حين عدنا إلى البيت قرر عدم خروجي مطلقًا، ولم يشفع بكائي ولا مجيء خالي، ورغم أنني سمعته يعنفه فيذكره ببيتي وأمي التي ماتت، فإنه لم يتراجع عن قراره، ولم يعف عني، حين نام واشتد ظلام الغرفة شعرت أن كل شيء في وجهي كاد أن يتحطم، فحمدت الله أن أربعة من أصابعه فقط هي التي أصابتني، ولذا كنت أجبن من أن أصرخ، فلو حدث هذا لكانت يده التي طرقت باب المعبد كمطرقة حرب قد نزلت على رأسي.

قلت «إنه الخوف»، وكانت الخمر قد بدأت تعمل تطويحاتها في النفس، ورأيتها تضحك فنهرتها، لكنها استمرت قائلة «الفلاحون أجبن من على الأرض». تذكرت يوم ضرب عمي الغني أمي ولم يستطع أبي إدراك ثأره، ويوم قال أبي: «لو اتجوزت البنت دي ما ترجعش البلد دي تاني» وكاد رأسي ينشطر نصفين، واحد يقول الخوف، وآخر يصر على القسوة، فلا بد أننا قساة بقدر ما نعرف. ربما أكون مثلهم يومًا ما، لكن هذه القسوة على أبنائنا أفضل من أن يقسو عليهم غيرنا «أدعي على ابني وأكره اللي يقول آمين» كلمة أمي المجيدة. لكن مديحة لم تنسَ فأعادت سؤالها:

- ليه حور ساب حبيبته؟

كانت الخمرة قد اشتعلت إلى أبعد مدى فوجدتني أقول: «حور ما كانش ليه في الستات، استريحتي»، وبينما كان ضحكها يتزايد في أذني كان الدم يغلي في عروقي، فثمة شيء ما جعلني أرتبط بحور، فشعرت أنني لم أكن واعيًا مرة واحدة آن مجامعتي لمديحة التي راحت تهدئني قائلة:

- بس انت قلت إنه شاف جسمها في مرة من المرات.

نعم رأى جسدها. رآها عارية كعروس تخرج من البحيرة، دعته إلى اشتهائها، حاول كثيرًا ولم يحدث، حاول أكثر لكنه رأى أمه التي لم يستطيع رؤيتها، فانسحب خلف شجرة وظل يبكي، ربما كانت في تلك اللحظة أقوى منه، لكنها سحبت ملابسها وتركته عاريًا كيوم أتى من بطن أمه.

كانت المقاطع تنز من فمي كجرح قديم عاوده النزف، وربما بكيت ساعتها، فوجدت يدًا تهدهد على كتفي وتفتح أزرار قميصي باحثة عن ماعت والطلسم المصكوك على صدري، فانتفضت كقط يرى ثعبانًا يدخل بيته، وكانت يدي أكثر قسوة مما عرفت، فدفعتها إلى الجدار، طرحتها ولم أنتظر، كالمجنون كنت أمزق ملابسها وأثبت لها رجولتي، كالمجنون كنت ألعن حور وأدخل فيها وأخرج منا، كالمجنون رحت ألملم العالم القديم وأقذفه، حاولت...وحاولت من جديد، لكنه انتصاب أبدي لأبعد مدى ودون جدوى، انتصاب وصهيل وصرخات توسل إثر توسل، رأيتها تبكي أسفل مني، ورأيتني جاهدًا أحاول أن أقذفها بنجوم السماء كلها لكن يدي لا تقبض على شيء، فهل جف حابي؟ أم أنه لم يفض مطلقًا، أم أن سيلاس بنى سده بداخلي؟ انسحبت عنها ورأيتني أبكي، ورأيتها ترتدي ملابسها، لم أستطع منعها وهي تحمل حقيبتها، لم أقل شيئًا، لكنها هي التي قالت:

- على فكرة أنا مش جاية تاني، كفاية كده.

كنت مهزومًا، لكنها رأت وحشًا ينتفض «أقسو عليها أفضل من أن تقسو عليَّ»، انهلت عليها

ضربًا، أقسو..... أقسو.....، وكلما سمعت أذني صراخها كانت يدي تشتد، ضربات إثر ضربات كأنني أهدم السد أو أطفئ النجوم في السماء، حتى لم أبق علىَ نجمة واحدة مضيئة، فجلست في الركن أبكي. حين صكت الباب خلفها كان كل شيء قد أصبح صامتًا. وحين حضروا لم أرفض الذهاب معهم؛ لأنني على الأقل لم أكن حيًّا.

27

ما كان لأحد أن يتخيل ذلك المصير الذي انتهى إليه أصغر كاهن في الثالوث المعظم لمعبد أشمون، حتى حور نفسه لو جلس يدقق في آلاف النجوم ما كان سيتعرف على طالعه النحس في ذلك اليوم. لكنها الآلهة تخطط للبشر مساراتهم التي عليهم أن يكتشفوها بأنفسهم.

جلس يحدث تلميذه في ذلك الصباح عن مطالعة النجوم ومعرفة خرائطها ومساراتها في السماء، عادة قديمة لديه حين يمر طيف «آن» على وجهه فيجلس وكأنه يقرأ آلاف النجوم التي تطالعه، سأل أحدهم عن نجم رآه يطلع من الغرب، ويستقر في الشرق، نجم يغيب أحيانًا ويظهر على فترات. ينبع في الشرق ثم يختفي ليلمع بوهن في الشمال، ثم الجنوب، ثم الشرق، ثم...، ثم.... ويطلع الصباح دون أن يعرف منتهاه. تذكر الليلات العظيمة التي كان البرد يأكل فيها فرائسه، ولا يعرف منتهاه، قال يا أيها الفتى لا تجهد نفسك خلف هذا النجم، فأوان معرفته لم يحن بعد، سأل الفتى عن ماهية النجم، فطافت آن بدثارها الجميل على وجه البحيرة، وخلعت قلادتها فقال «هي ديانة تخرج من غرب حابي في ستر الليل، حتى تصل إلى الشرق فتبني ملكًا ما بين الفراعنة والآشوريين، لكن ملكها لا يدوم، فتتشتت في البلاد، تارة يعلو نجمها في الجنوب، وتارة في الشمال، لكنه لا يدوم، حتى يجيء زمان يتحدث فيه الحديث، ويخرج منه الناس على الناس، فيعود ملكهم إلى الشرق ويزهو نجمهم فيه، لكن متى ينتهي؟.. لا أعلم «سأل الفتى عن موعد البزوغ الأول، فخلعت آن زنارها وطفت على وجه الماء، قال «يا فتى! حين ينتهي ملك الأشمونين ويتحد رع مع آمون، سيخرج من استضافهم آمون في أرضه عليه. يسرقون رعيته، ويهربون في الليل، دينهم جزء من دينه، وفكرهم جزء من فكره، لكنهم ليسوا أتباعه. حين يتحد النجمان الكبيران سيولد من بينهم نجم، وحين يخفت ضوء المعبدين سيزدهر هذا النجم». سأل الفتى: صف لنا من أين؟ خرجت آن عارية تنز أعضاؤها بالعطر والماء المفضض على النهدين، خطفت ملامح الكاهن وساحت في الفراغ، آلاف النجوم تترى على وجهه، مئات الخرائط والمجرات. صف لنا من أين يا سيدي؟... لو قست ما بين أشمون وأشمون ثم قسمت على اثنين، لكان المكان المعلوم، هناك حيث يسقط ثدي «حابي» على أرض الغرب وتنبثق منه العيون.

ذهب النهار وكأن شيئًا لم يكن، الليل لم يذهب، نادت «آن» كعادتها حين تحط الشمس رحالها، وترتل النجوم أناشيد بزوغها الملكي، كفتاة تخرج من البحيرة منداة بالضوء، وكإله جديد تتفتح عنه زهرة اللوتس، سمع حور نداءها فلملم أشياءه، وذهب يلبي النداء في صحو آب العظيم ،قاطعًا بهو المعبد الأمامي كرمح أطلقته راحة محارب قوي. منذ أيام والعلة لم تفارقه، لكنه اليوم يشعر بنفسه ريشة يحركها النسيم، خمسون مترًا بينه وبين الدرج حتى يرتقى أعلى قمة للمعبد، حيث صومعة الرصد التي بناها المقدس «راح نخت»، خمسون مترًا والظلمة تلف الأرض، بينما السماء صدر عروس محلى بآلاف القلائد وعقود اللؤلؤ الفضية، خمسون مترًا لم يعقه عن قطعها سوى صوت العجوز «راح نخت» ما الذي أخرج العجوز من بيته الآن؟ ولمَ ينادي في وقت لا أنصت فيه إلا لنداء السماء؟ كانت أساريره- رغم ما ارتسم عليها من ابتسامة جميلة لتلميذه الصغير- تدل على أن الأمر جلل. قلت «لا يُخرج الأب

المقدس سوى أمر لا يقوم به سواه»، زادت الابتسامة رقة. ووضع ذراعه النخرة في ذراع تلميذه وأخذا يقطعان ما بقي من الخمسين مترًا. أهناك ما يستدعي خروج المقدس العظيم «راح نخت» في العالم؟ «لا يمكنني أن أصف فرحتي بك وبما أنجزت من علم مقدس يا صديق النجوم. ولا أستطيع أن أنسى وأنا أحدثك أنك تلميذي، وابني الذي لو كان لي أن أنجب ما تمنيت أفضل منه، كما لا أنسى سيدي ورئيسي المقدم عليَّ، وصاحب الكرسي الثالث في معبد أشمون، لكن محبتي لك تجعلني أحذرك من نفسك ومن علمك». هكذا بدأ راح نخت حديثه الودود الصارم، وهكذا بدا الخوف يسقط في قلب حور، بينما طالعه النحس يرتفع في هامة السماء: «أفزعت قلبي يا معلمي، وأطلقت لطائر الخوف العنان، هل في الأمر شيء؟»، «بعض خوف على النجم المتألق في صفحة المعبد، أرح قلبك ولا تجهد عينيك».

- ما هكذا تحدث الكاهن المقدس من قبل.

- يا فتاي المقدس، ليس كل ما نعلم يقال، علمك كنز المعبد، فلا تجعل أعداءك يصعدون على جسدك، أما هكذا تعلمت؟!

- أفي الأمر ما يخالف التقاليد يا سيدي؟

- لا تحدث تلاميذك يا حور بما تعلم، ولا حتى نفسك، فالعلم هبة تحوت، فلا تخنه بالتحدث به.

- لكني لم أفعل وليس هذا ما يقلق الكاهن المعظم.

كان الدرج قد انتهى وكانت صفحة السماء أبهى من وجه البحيرة حين خرجت آن منها.

- أنت تعلم أن الكاهن الأكبر يحبك ويخاف عليك، وتعلم أنه يقدر علمك ورجاحة عقلك، لكني اليوم رأيته غير راضٍ عنك.

كان النجم الذي يتابعه حور منذ ليالٍ مضت يكاد يطير في وجهه الآن، لم يره ساطعًا هكذا في صفحة السماء من قبل، قال: أترى هذا النجم يا سيدي؟ كانت يده تشير إلى أعلى المعبد بالضبط، فدقق الكاهن العجوز ودقق ثم قال: هذا نجمك يا حور. فابتسم حور بوهن ثم قال لو أنني غير مؤمن لقلت بما تقوله إحدى الديانات في الشرق الأقصى، لو كنت على دينهم لقلت إن هذا النجم متناسخ معي، نجم من تحل روحي في جسده بعد خمسة آلاف عام، وجه شاحب وعود نحيل وأيام قليلة وعلة دائمة، نجم أخذ نجمي منه السطوع وأخذ من نجمي البقاء، سوف يبقى أكثر مما يظن، وسوف يرتبط نجمه بنجمي حتى لا يعرف الناس أيهما نجمي وأيهما نجمه. كلانا سيبقى لكنني في الخفاء وهو في العلن.

كان وجه الأب المقدس أكثر شحوبًا من النجم في تلك اللحظة، بل إن علامات الدهشة- التي قد تصل إلى حد اتهام حور بالجنون- بدأت ترتسم على وجهه، لكنه سيطر على خوفه وقال: لا تصعد إلى المرصد ثانية يا حور. كان الأمر أشبه بسكين سقطت من مكان علٍ على كبد مفتت، هذا الكاهن مهما بلغت درجة مودتي له هو أحد مرؤوسي فكيف يوجه لي أمرًا بكل هذه الصرامة، لا أظنه نسي الأمر.... فما الذي حدث؟! حين استدار إليه بعين مليئة بالدهشة والفزع، كان العجوز قد طأطأ رأسه وقال بحزن من يذبح ابنه بيديه»هكذا قال الكاهن الأكبر اليوم». قال حور: «منذ زمن وأنا أشعر أن نجمي يتضاءل، أشعر به ولا أراه، ليتني كنت أعلم.....».

- أصبح كلامك كثيرًا عما تعلم يا حور، حتى كاد المعبد يفتن بك، وبحديثك عن نهاية الأشمونيين، لم يتجرأ أحد بهذا الحديث من قبل، ولا أظن.

كان الغضب المشمول بالحزن يغلي في جسد حور فقال:

- لأنهم علموا شيئًا، فالأمر جد خطير يا سيدي!

- ربما، لكن الحديث عن شئون المعبد لا تكون يا ولدي سوى مع الكاهن الأكبر، ولا أظنه يريدك أن تتحدث فيها.

كان النجم قد شحب إلى أبعد مدى كأنه استعد إلى الموت، فقال حور: إذن فلأحدث الكاهن الأعظم نفسه.

- أنت وما ترى فأمرك بيدك، وللكاهن الأعظم عيون تفوق عدد الرمل والنجوم، فلا تتحدث بأمرك حتى مع نفسك.

وكأن السماء أطفئت فجأة فحمل حور محب نظارته وعصاه وبردته، وأخذ يسحب آلاف النجوم خلفه فلم تظهر طيلة الليل.

في الصباح هبط الكهنة المقدسون على بيته «مولاي الكاهن الأكبر يريدك الآن»، هكذا تحدث المقدم عليهم؛ فخف حور في سرعة البرق، يضع رداءه الكهنوتي على جسده ويهرول معهم. لم تكن حالته الصحية تساعده على كل هذه الهرولة، فدخل في نوبات من السعال الطويل، حتى وصل قدس الأقداس ممتقع اللون كسحابة صيف عجوز، كان الكاهن الأكبر عائدًا من البحيرة المقدسة للتو، حين رآه هدهد على كتفه وقال «هؤلاء الخدم لا يرحمون، ينفذون فقط ما يؤمرون به، ورغم أنهم أقل الرتب الكهنوتية في المعبد غير أنهم في أرقى الدرجات لدى أشمون». أدرك حور ما يرمي إليه كاهنه الأكبر لكنه لم يستطع أن يقاطعه. لم يستطع أن يجعل للصمت منحنى غير الذي أراده الكاهن الأكبر، «حور محب أصغر الكهنة سنًّا، وأحدثهم عهدًا بالمعبد، وصاحب الكرسي الثالث فيه، ورئيس طائفة علم الحدثان، يخطئ؟! هل يخطئ من منحناه كل هذا الشرف؟».

كانت أعضاء حور تتحرك وكأنها تريد أن تقطع الصمت وتقول شيئًا ما، لكن الكاهن الأكبر قطع الطريق على محاولة التمرد مشيرًا بيده بالسكوت «أعرف ما تريد أن تقوله، لكن ليس كل الوقت للود، ليس للمحبة مكان حين يتعلق الأمر بسيد الآلهة، يمكنني أن أحكم عليك الآن بالزندقة، أتدري معنى الحكم بالزندقة؟ أن أجهز مقبرتك خارج المحيط الأزلي، وأغمس روحك أسفل الأراضين، حيث الأفاعي والأرواح الشريرة، لكنني لا أود لأنبل التلاميذ هذه النهاية».

في المساء جلس في حجرة الدرس يكتب تقريره عن النجم الذي قبض عليه بالأمس، مئات التقارير تمتلئ بها خزائن الكاهن الأعظم عن النجوم التي رآها، مئات التقارير ذهبت إلى الفرعون عن المعارك التي سيخوضونها، مئات التقارير التي ساهمت في رسم سياسة الأشمونين في الجنوب، وآلاف الرسائل جاءت لتعظيم الكاهن الصغير، لكن لا شيء يشفع أمام مخالفة التقاليد، لا شيء يشفع أمام إفشاء الأسرار، لا شيء حتى الكرسي الثالث في معبد أشمون، قالها «راح نخت» وهو يسلي تلميذه المُجد. لا بد أن الأمر كله كان بثقل «القلزم» على صدره فكيف يبلغه أن منصبه قد ضاع منه الليلة، وما عاد له أن يصعد الهضبة المقدسة «بيضة الآلهة» كي يجلس في حجرة الثالوث المقدس «هذا أمر الكاهن الأعظم يا بني»، «لأجل مَن؟»، «لأجل أشمون العظيمة».

- أتراني مهرطقًا يا أبي؟

- إذا علم العامة بما علم الخاصة حدث اللغط وتاهت العقول.

- هل ذنبي أنني.....

قاطعه العجوز قائلًا: ذنبك أنك أفصحت، والإفصاح موت، والعامة تعتقد فيك أكثر مما يعتقدون في غيرك.

- هل هذا جزائي؟

- لا أدري لكنك تعلم أن الكاهن الأعظم وخليفته الأكبر يهمهما الشأن السياسي كالديني تمامًا، قد لا أفكر أنا ولا أنت في هذا، لكن ذلك عملهما، حتى إن الفرعون نفسه لا يفكر في أمره أكثر مما يفكرون هم فيه.

- لكن ذلك لم يكن باديًا في عينيه، ولم يقل لي....

- يحبك يا حور، يحبك، فأنت طفله المدلل، تلميذه النجيب، عينه التي ترى وقلبه الذي يتحرك، وما كان يمقدوره أن يبلغك بنفسه.

شعر حور أن الحديث قد انتهى وأن الوهن يصهر أعضاءه كلها، فجلس يفكر متأملًا الصمت الذي يضرب أركان المعبد، الكل يعلم بحوادث القتل المنتشرة، الكل يشير بصمت إلى شخص واحد وأعوانه المنتشرين في الليل.

لا أحد يفتح فمه كي يكسر هذا الموت، لا أحد لديه القدرة على إخصاب الأرض الظمأى، لا قدرة لأحد إلا على التوتر والخرس. «آن تبكي على حبيبها الذي لن يبلل بحيرتها بقطرة منه، تلملم أثوابها في أوراق البردي، وحبيبها يضرب رأسه في جذوع الشجر، يواري وجهه في أوراقها وينسحب ليبكي، يبكي ولا مجيب سوى الصمت.

في الصباح كانت حجرة حور محب تمتلئ بالكهنة والأطباء، أطباق من الأعشاب المطبوخة تفوح من فمه المعقود، رجفات برد في صيف أبيب، وآن على البحيرة تبكي، وحبيبها يأكله الخجل، حبيبها يقطع المسافة وحيدًا إلى البيت، رجفات البرد تشل أوصاله فيلملمه العائدون من الحقول، قبر أمه هو الحمى، صدرها هو الأخدود الذي عليه تنهمر الدموع، لست سيد الفتاة يا أمي ولا حبيبها، لست سوى حشرة علقت بأحشائها، محض عود معطوب وسماء لا تنذر بقطرة واحدة، أنا حابي الذي جف، أنا الصمت الذي أصبح فتى، أنا..... أنا..... .

حين استيقظ في المساء وجد الكاهن الأكبر بجانبه، فأدار وجهه عنه، لكنه شعر براحته التي ملأها الزمن بالتجاعيد تمسح العرق عن جبينه.

- أنا الآن هنا، ليس بوصفي رئيس المعبد، ولا الكاهن الأكبر، أنا بجانب تلميذ أحبه، تلميذ أحبه فقط، هل تذكر، كنت منذ خمسة أعوام معلمك في اللاهوت، كم دارت بيننا مناقشات في الأمسيات الجميلة، كم تحدثنا عما تعلم، وعما يجب أن تتمسك به، حين تم اختياري رئيسًا للكهنة رفعت اسمك للكاهن المعظم في الجنوب حتى تكون واحدًا في ثالوث أشمون، وحتى تجلس على مقعدي الذي تركته، هل تذكر، كانت أياديك عليهم بيضاء في المعارك، كانت قراءتك للنجوم هي الأفضل، كان علمك يخدم أشمون أفضل مما يخدم العلم، لكنك الآن تمارس العلم لذاته، تمارسه لنفسك أكثر مما تمارسه لأشمون، وأشمون لا يقبل أن يكون هناك شيء أعلى منه.

استدار حور بوجهه الشاحب نحوه وكأن عينيه المكللتين بالدموع تصفعان الكاهن الأعظم بقوة الحب الذي جمعهما، فانحدرت دمعتان تشبهان الحجر من الكاهن الأكبر.

- ولدي ليس الأمر بيدي وحدي، نحن المعبد الثاني يا حور، هل تعلم أنني أجبر على أشياء لا

أحبها، لكن أشمون يريد لنا ذلك، وهذه مشيئته، المعبد كله يا حور يتحدث الآن عن نهاية الأشمونين، واتحاد آمون ورع وموت الفراعين بالصمت، وعصر الحديد، والناس الذين سيخرجون منه، أتعتقد أن هذا لم يصل إلى الجنوب، أتظنهم يسكتون على هذه الترهات.... نعم أصدقك، والكارثة أن الكل يصدقك، ليتك كنت كاذبًا لمرة واحدة، ليتك يا ولدي...، أتعرف كم سيكلفنا هذا، كم سننفق من السنوات والأموال حتى نمحو من الذاكرة ما قلت، أنا نفسي لا أستطيع أن أجاهر بتلك الحقائق، صدقني يا ولدي إنني أحاول حمايتك الآن، وليس ما تظن، أحاول فقط أن أخفف أياديهم عنك، ولا أجعلك من المنبوذين.

لو كان للموت أن يتحدث ما كان صوته سوى صوت حور في هذه اللحظة، حين بكى الكاهن الأكبر لملم خجله وأعضاءه على سريره المنجد بالتيل والبردي وقال: سامحني يا سيدي، أعلم ما تقول، لكن قلبي الصغير لا يحتمل، أريد أن أفصح عما أعلم وإلا سأموت همًّا، أريد أن أتحدث حتى ولو مع نفسي، فاسمح لي يا مولاي أن أسرِّي عن نفسي ولو على ورقي، بعض الورق الذي لن يراه أحد غيري. ورق أرجو أن يدفن معي في مقبرتي حتى يكون شاهدًا عليَّ بأنني بلّغت، وأنتم لم تريدوا السماع.

- ما من أحد فعل فعلك يا بني.

- أشمون سيسألني عما فعلت بعلمي. أتحب أن ألقى تحوت وأنا جاحد برسالته؟!

تحجر الكلام في فم الكاهن الأكبر، وضاق صدره حتى بكى، ثم قال: «اصنع ما تشاء يا بني، لكن لا تخرج من بيتك، ولا يقرأ أحد ورقك»، ثم استدار إلى الكاهن الوحيد الموجود معهم راح نخت وقال: «أيها المبجل نخت، أنت الشاهد الوحيد على هذا العقد، فلا يخرج حور محب من بيته، ولا يدخل أحد عليه، وحدك الذي ترعاه، ووحدك المؤتمن على سره، لا أريده أن يخرج من رحمة أشمون، ولا أريدهم أن ينالوا منه».

تمتم الكاهن بالرضى والتسابيح، وخرج الكاهن الأكبر، وسجن حور في بيته، لا يدخل عليه سوى المقدس نخت، شهور ولت... وجاء برد الشتاء وليله الطويل المظلم، وريحه التي تمزق الأوصال، شهور وحور يكتب ولا يقرأ، وشاءت الإرادة أن يموت الكاهن الأكبر ويخلو المكان المقدس فيعتليه أكثر الناس كراهية لهما، فما أن تمت مراسم الدفن والتحنيط، حتى كان «حور» لاحقًا بالروح إلى جوار معلمه وكاهنه الأكبر. بالروح فقط لأن الجسد حين أتى الخدم المقدسون للقبض عليه وجدوه باردًا كلوح الثلج، باردًا كليل الشتاء، وريحه التي تضرب الأبواب، قال الأطباء: إن العقارب لدغته، وقال راح نخت: إنه مات من الحزن، لكن الكاهن الأكبر قال: إنه مات منتحرًا بالسم، ومن ثم تمت مراسم الحرق لهذا الجسد، مراسم الحرق لرجل خرج على ناموس أشمون وقتل نفسه، رجل هرطق وبلبل الأذهان ثم قتل نفسه، فحقت عليه اللعنة. فتش الخدم المقدسون بيته لكنهم لم يجدوا ورقة واحدة بها خطه فهدموه، واستدعوا راح نخت للمحاكمة، ففصل من منصبه ولزم بيته حتى مات بعد عام من صديقه.

كان الرفاق يبكون وهم يدلون بما يعرفونه عن موت الكاهن حور محب، وكنت أبكي لأني رأيت موتي وقد تجسد في أعينهم، فمنذ شهر لم يأتوا ولا أظنهم سيأتون ثانية.

المؤلف في سطور

- صبحي موسى شاعر وروائي مصري من جيل التسعينات، ولد عام **1972** بقرية شما التابعة لمركز أشمون بمحافظة المنوفية، وأتم تعليمه الأساسي بها، حصل على ليسانس الآداب قسم الاجتماع عام **1994**، وعمل وهو في العام الجامعي الثاني مراسلًا لجريدة الحياة المصرية، كما عمل بعد تخرجه مراسلًا لجريدة الأيام البحرانية، ثم جريدة القبس الكويتية، وعام **1998** كان بداية عمله بالهيئة العامة لقصور الثقافة، ليصبح سكرتيرًا لتحرير عدد من مطبوعاتها، ثم مديرًا لتحرير سلسلة أصوات أدبية، وفي يونيو **2011** أصبح مديرًا للنشر بها، كما أصبح المسئول الثقافي بمكتب جريدة القبس في القاهرة عام **2010**، ومنذ **1998** وهو ينشر مقالاته النقدية في جريدة الحياة اللندنية، عمل أيضًا في جريدتي القاهرة التي تصدرها وزارة الثقافة، وجريدة المصري اليوم، ونشر العديد من المقالات في مختلف المجلات الثقافية المصرية والعربية.
- بدأ موسى حياته الإبداعية شاعرًا ينتمي لتيار قصيدة النثر الذي يعد الحلقة الأحدث في مسار القصيدة العربية والعالمية، فأصدر عام **1998** ديوانه الأول «يرفرف بجانبها وحده» على نفقته الخاصة، وفي عام **2000** أصدر ديوانه الثاني «قصائد الغرفة المغلقة» عن سلسلة إبداعات التي كانت تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، ثم ديوانه الثالث «هانيبال» عن سلسلة «كتابات جديدة» بهيئة الكتاب عام **2002**، وفي نفس العام صدرت له روايته الأولى «صمت الكهنة» عن سلسلة أصوات أدبية، ثم روايته الثانية «حمامة بيضاء» عام **2005** من دار ميريت للنشر، وفي عام **2006** صدر ديوانه الرابع « لهذا أرحل» ثم روايته الثالثة « المؤلف» عام **2008**، وفي عام **2010** صدر ديوانه الخامس «في وداع المحبة»، بينما صدرت روايته الأبرز «أساطير رجل الثلاثاء» عام **2013** عن سلسلة كتابات جديدة بهيئة الكتاب.
- حصل موسى على منحة التفرغ من وزارة الثقافة من **2005** إلى **2008** لكتابة روايته «أساطير رجل الثلاثاء» التي فاز عنها في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام **2014** بجائزة أفضل عمل روائي لعام **2013**، كما حصل عام **2001** على الجائزة المركزية للهئة العامة لقصور الثقافة عن روايته الأولى «صمت الكهنة»، وفي عام **2013** حصل على منحة من الصندوق العربي للثقافة والفنون «آفاق» لكتابة رواية عن المورسكيين ومحنتهم وما حدث لهم بعد طردهم من الأندلس حتى وقتنا الراهن.
- ساهم موسى في العديد من الأنشطة الثقافية من أبرزها إصدار مجلة بعنوان «بشاير» مع مجموعة من أصدقائه الشباب في الفترة من **1994** حتى **1996**، شارك مع مجموعة من الشعراء والنقاد في تأسيس ملتقى القاهرة لقصيدة النثر عام **2009**، وفي عام **2010** أسس مع مجموعة أخرى الملتقى العربي لقصيدة النثر.